حقيقة التصوف

للشيخ

محمد حامد الناصر

ويتلوه ملحقان:

١- حقيقة الداعية الصوفي المعاصر «علي الجفري»

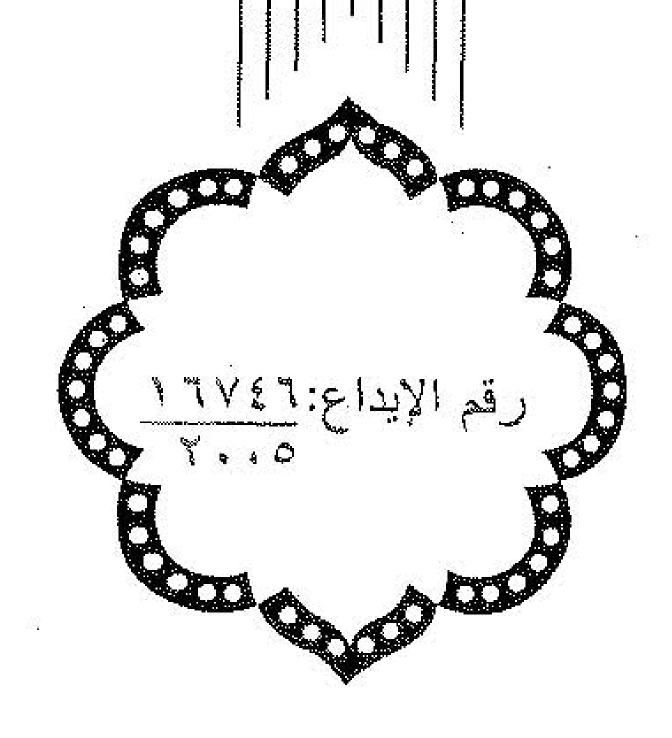
٢- حقيقة «مسجد الحسين»

ربنا تقبل منا

إنك أنت السميع العليم

الطبعة الأولى

(١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م)



مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وآله وصحبه؛ وبعد:

فإن أعظم فتنة ابتلي بها المسلمون قديمًا وحديثًا هي فتنة التصوف.. هذه الفتنة التي تلبَّست للمسلمين برداء الطُّهر والعِفَّة والزُّهد والإخلاص، وأبطنت كل أنواع الكُفر والمروق والزندقة، وحملت كل الفلسفات الباطلة ومبادئ الإلحاد والزندقة. فأدخلتها إلى عقائد الإسلام وتراث المسلمين على حين غفلة منهم؛ فأفسدوا العقول والعقائد، ونشروا الخرافات والدَّجل والشعوذة، ودمَّروا الأخلاق، وأتوا على بنيان دولة الإسلام من القواعد؛ حيث حارب المتصوفة العلم والجهاد والبصيرة في الدين، بل والزواج والعمل والكسب، فنصبوا للقرآن والسُّنَّة حربًا لا هوادة فيها، وحرَّفوا الناس عن تعليمها بكل سبيل، زاعمين تارة أن القرآن والسُّنَّة عِلْم أوراق وظواهر وأن علمهم الباطني علم أرواح وحقائق واطلاع على الغيب ومشاهدة! وتارة أخرى زاعمين أن أورادهم وأذكارهم تفضل ما في القرآن والسُّنَّة آلاف بل عشرات الآلاف من المرَّات! وتارة ثالثة واصفين كل علماء الشريعة بأنهم محجوبون مرتزقة ظاهريون جامدون، لم يتذوَّقوا الحقائق ولم يشاهدوا الغيب، واختص المتصوفة

أنفسهم وهم بوجه عام من الزنادقة المبتدعين والكفار المستترين بأنهم أهل العلم اللدني، والحقيقة!! واستطاعوا بذلك أن يُدخلوا كل ما سطره الكفار والزنادقة إلى عقائد المسلمين؛ وأول ذلك ما يسمى بعقيدة وحدة الوجود التي تنادي بأن الوجود كله وحدة واحدة، فلا خالِق ولا مخلوق، الكل عين واحدة، وحقيقة واحدة ـ في زعمهم ـ تعددت و جوداتها، وتغيرت صفاتها، ولكنها شيء واحد؛ فالجنة والنار، والرُّسل والشياطين، والمؤمنون والكفار والطهارة والنجاسة، والشرك والتوحيد شيء واحد وذات واحدة، ولا فرق بتاتًا ـ عندهم ـ بين موسى وفرعون، وإبليس أفضل من محمد ﷺ، وفضَّل شيخهم الأكبر ابن عربي فِرعونَ على موسى؛ لأن فرعون علم الحقيقة التي يدَّعيها الصوفية ـ

حيث قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾!! وهكذا خرج المتصوفة على المسلمين بدين هذه مبادئه، دين يرى في إبليس مثالاً للفتوة والتوحيد؛ لأنه لم يرض أن يسجد إلا لله بزعمهم! وبفرعون إمامًا لأهل الإيمان الصوفي؛ لأنه عرف الحقيقة وأنه هو الله!

لقد استطاع المتصوفة إفساد عقائد المسلمين في قرون متطاولة، واستطاعوا كذلك إفساد أعمالهم وشرائعهم، وكانت له اليد الطولى في هزيمة العالم الإسلامي وسقوطه تحت نير الاستعباد والذُّل والتبعية لدول الكفر، وكان التصوف هو القنطرة التي عَبَرَ عليها الملحدون والزنادقة والمفسدون في الأرض، والعباءة التي تَستَّر بها كل من يريد

التخريب والتدمير لأمة الإسلام ورسالة القرآن، ثم بعد ذلك كان التصوف هو الجسر الذي ركبه وعبره كل من يريد الوصول إلى تعظيم الناس له، واستعباد الآخرين، و أكل أموالهم بالباطل؛ فقد تحوَّل الزنادقة ومَن لا أصول لهم معروفة من الأعاجم والملاحدة فدخلوا في التصوف، وانتسبوا زورًا إلى أهل بيت النبوة، وادَّعوا الكرامات والكشوف، والعلوم الأهلية اللدنية التي تنزل عليهم، ومن ثم سخَّروا الناس لخدمتهم، بل وعبادتهم من دون الله أحياءً وأمواتًا؛ فحُملت لهم الهبات والهدايا، وانهالت من كل حدب وصوب، وقدَّسهم الناس وعظَّموهم تعظيمًا لم تعرفه الملوك ولا أبناء الملوك من الجبابرة المفسدين، واستطاع هؤلاء الزنادقة المتسترون أن يقيموا إقطاعيات دينية، وممالك طائفية تربَّعوا على عروشها، وجعلوها وراثة في أولادهم من بعدهم(١).

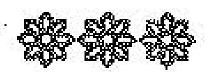
لقد كانت رؤية هذا الخطر الماحق على أُمَّة الإسلام سببًا في نشر هذا الكتيب الذي هو عبارة عن فصل من فصول رسالة «بدع الاعتقاد» للشيخ محمد حامد الناصر ـ حفظه الله ـ؛ أوضح فيه بجلاء حقيقة التصوف نُصحًا لأبناء الأمة أن ينخدعوا بظاهره الوهمي المراوغ الذي يدَّعي الزُّهد والورع ويخفي العقائد الفاسدة والسلوكيات المنحرفة.

---

(١) بتصرف يسير من مقدمة الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق لكتابه: «الفكر الصوفي في ضوء الكِتَاب والسُّنَّة».

وقد استأذنت فضيلته في نشر هذا الفصل النافع فأذن لي مشكورًا مأجورًا، ثم أتبعته بملحقين مهمين: أولهما في بيان حقيقة الداعية الصوفي المعاصر «علي الجفري» ـ هداه الله ـ، وثانيهما: في بيان حقيقة «مسجد الحسين» الموجود بالقاهرة.

أسأل الله أن ينفع أبناء المسلمين بهذا الكتيب، وأن يجعله سببًا في كشف حقيقة الباطل لهم، ووسيلة لانتشال مَن زلَّ منهم في بدعة التصوف أو الاغترار به؛ إلى الالتزام بالعقيدة السلفية، وبالسُّنَّة النبويَّة التي كان عليها جيل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ.



حقيقة التصوف

الفصل الأول: تعريف التصوف - نشأته وتطوره.
الفصل الثاني: الانحرافات العقدية عند أهل التصوف.
الفصل الثالث: الآثار السلبية لظاهرة التصوف.

الفصل الأول
نشأة التصوف وتطوره

١- تعريف التصوف واشتقاقه[(١)]:

اختلف العلماء في اشتقاق التصوف لغوياً، وفي تعريفه كذلك، كما اختلفوا في أصله ونشأته، وما زالوا مختلفين حتى اليوم.

والواقع إن البحث في التصوف شائك، لأن المراجع التي دون فيها فكر التصوف ومنطلقاته، تجمع من الحجج والبراهين الأشياء الكثيرة والمتناقضة.

وسوف نقتصر في بحثنا عن التصوف، على ما شاع عند أهله وما دون عند المتصوفة في كتبهم، وما كتب عنهم عند العلماء الثقات، إن شاء الله تعالى.

* فالتصوف مشتق من الصفاء، كما يرى بعضهم، قال بشر بن الحارث: «الصوفي من صفت لله معاملته، فصفت له من الله عز وجل كرامته».

- وقال آخرون: إن الصوفية نسبوا إلى صفة المسجد النبوي

---

(١) انظر: التصوف المنشأ والمصادر: إحسان إلهي ظهير، ص٣١-٣٧، والفتاوى: لابن تيمية، جـ١١، ص٥-٦. والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ص٣٤١.

لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة.

- وأكد آخرون: أن التصوف منسوب إلى «الصوف» لأن لباس الصوف أقرب إلى الاشتقاق اللغوي، وإلى الظروف التاريخية التي أحاطت بنشأة التصوف، فقد كان يكثر لباسه عند المتصوفة.

«وقد روي أن محمد بن سيرين بلغه أن قوماً يفضلون لباس الصوف فقال: إن قوماً يتخيرون الصوف، يقولون إنهم متشبهون بالمسيح بن مريم، وهدي نبينا أحب إلينا، وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره».

«إلا أن ابن تيمية رحمه الله يضعف أكثر هذه الأقوال لأنها لا تصح من ناحية اللغة واشتقاقها»[(١)].

- وذهب البيروني إلى أن الصوفية إنما هي اشتقاق من كلمة «سوفيا» اليونانية، والتي تعني الحكمة.

- ويقول ابن خلدون عن التصوف وطريقته التي كثر الاختلاف فيها عند الناس: «وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها.. والانفراد في الخلوة للعبادة»[(٢)].

وعلى العموم فإن الأقوال في تعريف التصوف كثيرة، حتى قال السهر وردي: «وأقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف

---

(١) الفتاوى: لابن تيمية جـ١١، ص٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ص٣٣٣، نشر دار المصحف بالقاهرة.

قول»[(١)].

ويبدو أن هذا الاختلاف يرجع إلى تطور ا لتصوف وتشابك جذوره ومظاهره عبر القرون، وهذا ما سوف نلقي عليه الضوء في الفقرة القادمة.

٢- نشأة التصوف ومصادره:

لقد تشعبت الآراء والأقوال في منبع التصوف ومصدره أيضاً، فقال قائل: إنه إسلامي بحت في أشكاله وصوره، وأصوله وقواعده، وأغراضه ومقاصده، وفي مواجيده وأناشيده. وهذا هو ادعاء الصوفية ومن ناصرهم.

وقال قوم: لا علاقة للتصوف بالإسلام إطلاقاً، في نشأته وظهوره، وهو أجنبي عنه كاسمه.. ولذلك يبحث هؤلاء عن مصادره في الفكر الأجنبي.

ويقول بهذا الرأي أكثر السلفيين والفقهاء والمتكلمين من أهل السنة المتقدمين، وكثير من الباحثين المعاصرين والمستشرقين.

وقالت طائفة: إنه اسم للزهد الذي تطور بعد القرون المشهود لها بالخير، كرد فعل على زخرفة المدنية وزينتها التي انفتحت أبوابها على المسلمين بعد الفتوحات، وانغماسهم في ترف الدنيا ونعيمها.

ودخلت بعد ذلك أفكار أجنبية وفلسفات غير إسلامية، وذهب

---

(١) عوارف المعارف: للسهروردي، ص٥٧، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٣هـ.

إلى هذا الرأي ابن تيمية والشوكاني وغيرهما من بعض أعلام السنة، حتى الصوفية أنفسهم وبعض المستشرقين يرون هذا الرأي.

وقال آخرون: إن التصوف كان وليد الأفكار المختلطة من الإسلام وبقايا اليهودية والمسيحية، ومن المانوية والمجوسية والبوذية وقبل ذلك من فلسفة اليونان، وآراء الأفلاطونية الحديثة، وتمسك بهذا الرأي بعض من كتب عن الصوفية، من المسلمين وغير المسلمين.[١]

وخير طريقة للحكم على آراء المتصوفة هو الرجوع إلى رسائلهم وكتبهم الموثوقة لديهم.

والحقيقة: إن الصوفية مصطلح طارئ ظهر عندما كثر لبس الصوف في جماعة من الزهاد، فقيل إنهم تصوفوا - أي لبسوا الصوف - فسموا صوفية وقيل لواحدهم «صوفي».

٣- متى ظهر التصوف؟

يرى بعض الباحثين أنه ظهر في الكوفة، وسبب ذلك عندهم أن الكوفيين قد تأثروا بموجة الزهد الذي اتخذ شكل معارضة لبني أمية، فقد خالفوهم إلى لبس ملابس الزهاد والرهبان.

وممن قال بذلك: الدكتور كامل الشيبي، الذي يرى أن التصوف ارتبط بسبب ذلك بالتشيع، لما في الكوفة من اضطراب سياسي وهزيمة نفسية من جراء الأحداث التي نزلت بساحتها خلال مواقفهم مع آل

---

(١) التصوف المنشأ والمصادر: تأليف إحسان إلهي ظهير، ص٤٣-٤٤، إدارة ترجمان السنة، لاهور، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

البيت، فلما لحقتهم الهزيمة العسكرية، تركوا القتال والدعوة إلى خلافة علي وذريته، ولجؤوا إلى الزهد وطريقة التصوف.(١)

بينما يرى ابن تيمية رحمه الله: أن الصوفية ظهرت في البصرة، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر الأمصار، ولهذا كان يقال: فقه كوفي، وعبادة بصرية وغالب ما يحكى من المبالغة في هذا الباب إنما هو عن عباد أهل البصرة.. فكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن، ولم يكن في الصحابة من هذا حاله، فلما ظهر ذلك أنكره طائفة من الصحابة والتابعين، كأسماء بنت أبي بكر وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم، ومحمد بن سيرين ونحوهم.

وقد اختلف الناس في طريقة المتصوفة هؤلاء، يقول ابن تيمية:

«فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا إنهم مبتدعون خارجون عن السنة. وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

والصواب: أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، ومنهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.

ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاصٍ لربه.

---

(١) مجموع الفتاوى: لابن تيمية، جـ١١، ص٦-٨، طبعة المغرب.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، كالحلاج، وإن أنكر طائفة من مشايخ الصوفية أنه منهم»[١].

والطوائف هذه تمثل تطور التصوف خلال مراحله المتباينة كما سيأتي بيانه.

٤ – تطور التصوف والمراحل التي مرّ بها:

لقد مر التصوف بمراحل مختلفة، إذ بدأ بالزهد والزهاد في البصرة وأمثالها من أمصار المسلمين، ثم تحول بعد ذلك إلى طرق صوفية لكل منها معالمها المتميزة، ومن ثم صارت تنحرف عن الإسلام وتعاليمه رويداً رويداً.

ويمكن أن نميز في الصوفية ثلاث مراحل واضحة نوجزها فيما يأتي:

المرحلة الأولى:

وكان يغلب على أصحابها جانب العبادة والبعد عن الناس، مع التزامهم بآداب الشريعة، وقد يغلب على بعضهم الخوف الشديد والبكاء المستمر، وكان من هؤلاء في المدينة: عامر بن عبد الله بن الزبير، الذي كان يواصل في صومه ثلاثاً ويقول له والده: رأيت أبا بكر وعمر ولم يكونا هكذا[٢].

---

(١) المرجع السابق: ص١٧–١٨، من الجزء السادس عشر.

(٢) سير أعلام النبلاء: الذهبي، جـ٥، ص٢١٩.

وكان في البصرة طلق بن حبيب العنزي، وعطاء السلمي الذي بكى حتى عمش.[1]

ومن هؤلاء الزهاد: إبراهيم بن سيار وبشر بن الحارث الحافي كان قد فاق أهل عصره في الزهد وحسن الطريقة واستقامة المذهب وعزوف النفس كما قال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد.[2]

ومن هؤلاء جنيد بن محمد الجنيد، الذي ينقل عنه الخطيب البغدادي قوله: «علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، ومن لم يحفظ الكتاب ولم يكتب الحديث ولم يتفقه، فلا يقتدى به».[3]

«إن هؤلاء كانت مقاصدهم حسنة، غير أنهم على غير الجادة وفيهم من كان لقلة علمه، يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري».[4]

ومن هذا الزهد المشروع نسبياً انتقل بعضهم إلى تأليف الكتب، يدعو فيها إلى أمور لم تكن عند الزهاد السابقين، كترك الزواج مثلاً، ومن هؤلاء: مالك بن دينار الذي امتنع عن الزواج، وعن أكل اللحم إلا من أضحيته، وكثيراً ما كان يقرأ في كتب السابقين كالتوراة

---

(١) المرجع السابق: جـ٤، ص٦٠١.

(٢) تاريخ بغداد: جـ٧، ص٦٧ - ٨٠.

(٣) تاريخ بغداد: جـ٧، ص٢٤١-٢٤٩. وانظر: التصوف في ميزان البحث والتحقيق: عبد القادر بن حبيب السندي، توزيع مكتبة ابن القيم، طبعة ١٤١٠هـ، من ص٤٣-١٠٤، حيث ترجم لعدد من معتدلي الصوفية.

(٤) التصوف المنشأ والمصادر: إحسان إلهي ظهير، ص٤٦.

والإنجيل.

ويعتبر من أقطاب هذه المرحلة: رابعة العدوية، التي استحدثت قصة الحب الإلهي والعشق الإلهي.

فهؤلاء من أوائل الصوفية الذين اتخذوا طريقة، جمعوا فيها بين الزهد والتعمق والتشدد، والتفتيش عن الوساوس والخطرات، مما لم يكن على عهد السلف الأول.

وإذا كان الصفاء الروحي يأتي بدون تكلف عند السلف نتيجة التربية المتكاملة، فنحن هنا بصدد تشدد وتكلف لحضور هذا الصفاء، وبصدد تنقير وتفتيش عن الإخلاص يصل إلى حد الوساوس.

ومما استحدث في هذه المرحلة: الاستماع إلى القصائد الزهدية مع استعمال الألحان المطربة، وصنفت الكتب التي تجمع أخبار الزهد والزهاد، ولكنها تخلط بين الصحيح وغيره، وتدعو إلى الفقر، وتنقل عن أهل الكتاب، مثل كتب الحارث المحاسبي، وقوت القلوب لأبي طالب المكي والرسالة للقشيري.[1]

وعلى كلٍّ «فإن هذه المذاهب قد ظهرت فيما بعد القرون المفضلة رويداً رويداً، وكان أصحابها الأولون قد انفردوا بما أتوا من الزهد والورع، الذي لم يكن عليه رسول الله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان، وإلى هذا يشير قوله تعالى:

---

(١) انظر: الصوفية نشأتها وتطورها: محمد العبدة - طارق عبد الحليم، دار الأرقم، الكويت، ١٤٠٦هـ، ص٢٢-٢٧.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد:٢٧].

والحقيقة إن لفظ الصوفية لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك»[١].

وربما كان الصوفية صادقين في زهدهم في هذه المرحلة، مع بعدهم عن الدنيا، إلا أن التشدد الذي فرضوه على أنفسهم لم يأمر به الشارع، ويبدو أن هناك تأثيراً للنصارى في تكوين القناعات بتعذيب الجسد كي تصفو الروح[٢].

هذه البداية للتصوف بقيت مقبولة إلى حد ما، ولكن ليت الأمر وقف عند هذا الحد، وإنما بدأت تغزو الصوفية مصطلحات غامضة، وطقوس غريبة، وانحرافات عن الشريعة، وهذا ما ظهر جلياً في المرحلة التالية، وخلال طرق منظمة، لها مشايخها وطقوسها، بعد القرن الثالث الهجري.

المرحلة الثانية:

وقد أدخل فيها المتصوفة مصطلحات غامضة فتحدثوا عن الفناء والبقاء، وعلم الإشارة في المكاشفات، والمآل في ذلك إلى الذوق.

وفي هذه المرحلة: نشأ لديهم ما يسمى بعلم الظاهر والباطن

---

(١) الصوفية والفقراء: ابن تيمية، ط دار الفتح، القاهرة، ص٥.

(٢) الصوفية: محمد العبدة - طارق عبد الحليم، ص٢٩.

وأعلنوا سقوط تكاليف الشريعة عن أوليائهم، لاطلاعهم على علم الحقيقة وبسبب الكشف والإلهام، وزعموا الاطلاع على علم الغيب فكثرت الأساطير والخرافات عندهم[١].

ولعل عقائد الشيعة - والباطنية خاصة - قد خالطت عقائد القوم، كما أن الأديان القديمة وفلسفة اليونان، قد تغلغلت في عقائد المتصوفة من خلال الطريقة ورموزها ومصطلحاتها.

«وقد ظهر هذا التصوف بصورة مذهب مخصوص، وطائفة مخصوصة عند الموالي والأعاجم، عن سذاجة حيناً، وأحقاد لهدم الإسلام حيناً آخر، فأدخلوا اليهودية والمسيحية وأفكارهما على الإسلام، ناهيك عن الزرادشتية والمجوسية والبوذية، وفلسفة اليونان الأفلاطونية، يقصدون إبطال الشريعة والتفريق بينها وبين الحقيقة، مع إشاعة الأساطير والأباطيل باسم الكرامات والخوارق، ولم يظهر التصوف مذهباً ومشرباً، ولم ترج مصطلحاته الخاصة وأصوله وقواعده إلا في القرن الثالث الهجري، وما بعده»[٢].

وقد كان معظم أقطاب التصوف من هذه الطبقة منهم: أبو الحسن الشاذلي، وأبو يزيد البسطامي، وأحمد الرفاعي، وأحمد البدوي، وعبد القادر الجيلاني والتيجاني والنقشبندي...

* **فأبو يزيد البسطامي:** «طيفور بن عيسى، أحد الزهاد كان جده

---

(١) سنفصل الحديث عن هذه الانحرافات العقدية في الفصل القادم.

(٢) التصوف المنشأ والمصادر: إحسان إلهي ظهير، ص٤٣-٤٥، بتصرف يسير.

مجوسياً فأسلم، وله نكت مليحة، إلا أنه جاء عنه أشياء مشكلة لا مساغ لها، قاله في حالة السكر والدهشة والغيبة، لا يحتج بها، إذ ظاهرها الإلحاد كقوله: سبحاني ما أعظم شاني وما في الجبة إلا الله، ما النار؟ لاستندت إليها غداً، وأقول: اجعلني فداء لأهلها...

لقد تأول هذه الشطحات، علماء الصوفية وقال بعضهم: إنه قال ذلك في حال الاصطلام والغيبة»[١].

* **وأبو الحسن الشاذلي:** شيخ الطائفة الشاذلية، كان كبير المقدار عالي المنار، له عبارات فيها رموز.[٢]

والأقوال فيه متضاربة: فبينما ينقل عنه الشعراني في طبقاته أنه: «كان يقول: إذا عارض كشفك الكتاب والسنة، فتمسك بالكتاب والسنة، ودع الكشف».

وينقل عنه أيضاً: «أنه كان يقول: أنا الآن لا أنتسب إلى أحد، بل أعوم في عشرة أبحر، محمد وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وجبريل وميكائيل... الخ»[٣].

ومن الجدير بالذكر أن الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر، كتب كتاباً في تمجيد الشاذلي وطريقته.

ففي ذلك الكتاب يذكر أن الله سبحانه كلم الشاذلي على جبل

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء: جـ١٣، ص٨٦-٨٨. والبداية والنهاية: جـ١١، ص٣٥.

(٢) طبقات الشعراني: جـ٢، ص٤-١٣.

(٣) السابق: جـ٢، ص٧.

زغوان، وهو الجبل الذي اعتكف الشاذلي في قمته، وتعبد فيه وتحنث، يذكر ذلك نقلاً عن صاحب كتاب «درة الأسرار».[١]

وينقل أيضاً: أن رسول الله ﷺ كلم الشاذلي من داخل حجرته الشريفة «فلما قدم المدينة زادها الله تشريفاً وتعظيماً، وقف على باب الحرم من أول النهار إلى نصفه، عريان الرأس حافي القدمين، يستأذن على رسول الله ﷺ تسليماً، فسئل عن ذلك فقال: حتى يؤذن لي... فسمع النداء من داخل الروضة الشريفة: «يا علي ادخل».[٢]

فمن كانت هذه مكانته لا يستبعد أن يقول: «لولا لجام الشريعة على لساني لأخبرتكم بما يكون في غد وبعد غد إلى يوم القيامة» وإني لأستغرب كيف ينقل شيخ الجامع الأزهر هذه الأساطير وهو الذي تخرج من فرنسا أيضاً، إلا أن التربية الصوفية كثيراً ما تلغى فيها العقول.

والطريقة عند أقطاب التصوف، أن معظمهم يوصل نسبه إلى آل البيت «علي وأبنائه خاصة» فالرفاعي والشاذلي وأحمد البدوي والجيلاني كلهم من آل البيت، ويخاطبون جدهم رسول الله، وهو في قبره فيجيبهم. صلى الله عليه وعلى آله وسلم، هكذا يزعمون، ويصدقهم أتباعهم بلا تردد.

---

(١) انظر: المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلي: د. عبد الحليم محمود، ص٣٢، طبعة دار الكتب الحديثة، القاهرة.

(٢) المرجع السابق: ص٨٣.

ومما قاله الشاذلي: «أعطيت الشاذلية ثلاثاً لم تحصل لمن قبلهم ولا لمن بعدهم: الأول أنهم مختارون في اللوح المحفوظ، الثاني أن القطب منهم إلى يوم القيامة، الثالث أن المجذوب منهم يرجع إلى الصحو»[١].

* أحمد بن الرفاعي:[٢] المتوفى سنة ٥٧٨، يحاول أتباعه إثبات نسبه إلى رسول الله ﷺ أيضاً.

يذكر صاحب القلادة أن الرفاعي لما حج عام ٥٥٥هـ وقف تجاه الحجرة العطرة النبوية وقال: السلام عليكم يا جدي، فقال له عليه أفضل صلوات الله: وعليك السلام يا ولدي.[٣] وسمع ذلك كل من في المسجد النبوي، ومد له رسول الله يده الشريفة العطرة من قبره الأزهر فقبّلها، في ملأ يقرب من تسعين ألف رجل؟! ثم قالوا: «وإنكار هذه الكرامة كفر»[٤].

وينقل عن الرفاعي أمور غريبة، وحركات عجيبة، وقد تعلم أصحابه السحر. يقول الذهبي: «ولكن أصحابه فيهم الجيد والرديء، وقد كثر الزغل فيهم وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار

---

(١) دراسات في التصوف: إحسان إلهي ظهير، ص٢٣٥-٢٤٨، طبعة إدارة ترجمان السنة، لاهور.

(٢) انظر: دراسات في التصوف: لإحسان إلهي ظهير، فصل عن الرفاعية.

(٣) قلادة الجواهر في ذكر الرفاعي وأتباعه الأكابر: لمحمد أبي الهدى الرفاعي، من ص٢١٥-٢٣٤. والتصوف: للسندي، ص١١١-١٣٣، طبعة بيروت، ١٤٠٠هـ.

(٤) القلادة: الصفحات ١٠٤-١٠٨-١٠٩. وجامع كرامات الأولياء: للنبهاني، جـ١، ص١٩٨.

العراق، من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات»[١].

وقال ابن خلكان[٢] : «ولأتباعه أحوال عجيبة، من أكل الحيات وهي حية، والنزول إلى التنانير وهي تضطرم من النار فيطفئوها».

وقال ابن الملقن في ترجمة الرفاعي: «هو القائل: الشيخ من يمحو اسم مريده من ديوان الأشقياء، ثم قال: ودخل عليه شخص، وكان على جبهته مكتوب سطر الشقاوة فمحي ببركته»[٣].

وقد ناظر ابن تيمية رحمه الله أتباع الرفاعي «البطائحية» أمام أمير دمشق، وأبان الكذب والتلبيس عند مشايخهم، واشترط عليهم أنه سيدخل معهم النار على أن يغتسلوا بالخل والماء الحار، لأنهم كانوا يطلون جسوهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع وباطن قشر النارنج وغير ذلك من الحيل المعروفة لهم... ولما فضح أمرهم ذلوا، وطلبوا التوبة عما مضى، وسأل الأمير ابن تيمية عما يطلب منهم فقال: متابعة الكتاب والسنة[٤].

* **أما أحمد البدوي:** والملقب بالسيد البدوي، فقد أحاطوه بمظاهر التقديس، وجعل قريناً لرسول الله وغيره من الأنبياء، وزعموا أن شفاعته لا يصل إلى مثلها الأنبياء، وأنه يطلع على الغيب، وأن الأرض تطوى له،

---

(١) انظر: العبر: للذهبي، جـ٣، ص٧٥.

(٢) وفيات الأعيان: لابن خلكان، جـ١، ص١٧٢، بيروت.

(٣) طبقات الأولياء: ص٩٨. وانظر: التصوف: للسندي، ص١١١-١٣٣.

(٤) انظر: الفتاوى: ابن تيمية، جـ١١، ص٤٤٥-٤٦٦.

وأنه قادر على إحياء الموتى، وإماتة الأحياء، وأنه يخرج من قبره عندما يستغيث به أحد ممن يتعرض لقاطع طريق، وأنه يتكلم من قبره، وقد ادّعى السيد البدوي أنه من نسل رسول الله ﷺ[(١)].

ويبدو أن البدوي كان شخصية غامضة مريبة، لها مخطط باطني خبيث، خطط له ومهد الطريق شخصيات من رموز الشيعة الباطنية باسم التصوف والدروشة.[(٢)]

* هذه نماذج من قادة التصوف عرضت لسيرة بعضها حتى يطلع القارئ على خطورة ما توصلوا إليه من أفكار وشطحات، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى المراجع المطولة.

المرحلة الثالثة:

تعتبر هذه المرحلة من أخطر مراحل التصوف حيث تسربت الفلسفة اليونانية، فابتعدت بها عما سبقها من مراحل التصوف، بل جعلتها من الصوفية الخارجة عن الإسلام، إذ كان تأثير الفلاسفة قوياً بعد ترجمة كتب اليونان، وفيها نظرية الفيض والإشراق، التي ستلعب دوراً خطيراً في فكر التصوف، وخاصة عند السهر وردي، وابن عربي.[(٣)]

---

(١) انظر: السيد البدوي دراسة نقدية: د. عبد الله صابر، الفصل الخامس، من ص٣٧ حتى ص٤٥. والتصوف في ميزان البحث والتحقيق: للسندي، ص١٣٤ حتى ص١٧٢.

(٢) السيد البدوي: د. عبد الله صابر، الفصل الرابع، ص٢٦-٣٥.

(٣) الصوفية: محمد العبدة، ص٤٠-٤١.

وقد ذكر كثير من الباحثين، أن الأفلاطونية الحديثة هي أحد المصادر الأساسية للتصوف، بل إنها هي المصدر الأول بالنسبة إلى القائلين بوحدة الوجود والحلول، بدءاً من أبي يزيد البسطامي، وسهل التستري وابن سبعين، وانتهاء بابن الفارض والحلاج وابن العربي والسهروردي المقتول وغيرهم كثير.

وقد أخذ هؤلاء نظرية الفيض والمحبة والإشراق والمعرفة، مع الآراء الأخرى التي تمسكوا بها عن الأفلاطونية الحديثة.

ويرى آخرون أنها مأخوذة من البوذية، وغيرها من الديانات المحرفة كاليهودية والنصرانية[١].

فصار هؤلاء المتصوفة يعتقدون أنه ليس هناك فرق بين الله وخلقه، إلا أن الله تعالى كل والخلق جزؤه، وأن الله متجلٍّ في كل شيء من الكون حتى الكلاب والخنازير، فالكل مظاهره، وما في الوجود إلا الله، فهو الظاهر في الكون، والكون مظهره.[٢]

يقول ابن عربي: «فلا مظهر له إلا نحن، ولا ظهور لنا إلا به، فبه عرفنا أنفسنا وعرفناه، وبنا تحقق عين ما يستحق الإله.

(١) التصوف والمنشأ والمصادر: إحسان إلهي ظهير، ص١٢١.

(٢) دراسات في التصوف: إحسان إلهي ظهير، ص٢٩٦.

فلـولاه لما كنـا ولولا نحن ما كانـا
فإن قلنا بأنا «هو» يكون الحق إيانـا
فبدانـا وأخفـاه وأبـداه وأخفانـا
فكان الحق أكوانا وكنا نحن أعيانـا [١]

تعالى الله عما يقول هؤلاء الضالون علواً كبيراً، إذ أن هؤلاء «يعتقدون أن العالم كله ظل وعكس لذات الله تعالى، فهل في الوجود إلا الله؟ والإنس والجن والشجر والحجر والدود والدواب، والطيور والسباع والكلاب والخنازير صور مختلفة للتجلي الإلهي، فكل شيء في العالمين إله عند الصوفية، وعلى ذلك نقل الطوسي عن أبي حمزة الصوفي: أنه كان إذا سمع صوتاً مثل هبوب الريح، وخرير الماء، وصياح الطيور، كان يصيح ويقول: لبيك» [٢].

«ونقل عن أبي الحسن النوري أنه سمع نباح الكلاب فقال: لبيك وسعديك» [٣]. فماذا بعد هذا من الكفر الصريح، والوقاحة مع ذات الله جل جلاله. لقد كان عباد الأصنام يحترمونها ويدافعون

(١) الفتوحات المكية: ابن عربي، جـ٢، ص٤٤-٤٥.
(٢) كتاب اللمع: للطوسي، ص٤٩٥، ط دار الكتب الحديثة بمصر.
(٣) إيقاظ الهمم: ابن عجيبة الأندلسي.

عن مقدساتهم، أما هؤلاء فقد نزلوا بأربابهم إلى أقل من عباد الأصنام بكثير.[١]

❁❁❁

(١) سوف نزيد هذا الموضوع تفصيلاً في الفصل القادم (الانحرافات العقدية).

الفصل الثاني
الانحرافات العقدية عند أهل التصوف

وفيه عدة مباحث:

المبحث الأول: الشريعة والحقيقة (أو الظاهر والباطن) وسقوط التكاليف الشرعية.

المبحث الثاني: الأولياء والكرامات.

المبحث الثالث: الصلة بين التصوف والتشيع.

المبحث الرابع: غلاة الصوفية وقولهم بوحدة الوجود.

المبحث الخامس: تقديس القبور والأضرحة والاستغاثة بأصحابها.

المبحث الأول

الشريعة والحقيقة «الظاهر والباطن»

وقع المتصوفة في انحرافات عقدية خطيرة، تغلغلت في طرقهم من عقائد الشيعة والباطنية خاصة، كما أنها دخلت إليهم من عقائد الملل الأخرى، مما أوقع القوم في ضلالات، من أولها هذا الانحراف الذي قسم الدين فيه إلى ظاهر وباطن، وإلى شريعة وحقيقة، ثم انجرفوا إلى القول بسقوط التكاليف الشرعية وتأويل القرآن تأويلاً باطنياً فاسداً.

فالشريعة - كما يراها المتصوفة - هي مجموعة من الأحكام العملية التكليفية أي ما يسمى «بالفقه الإسلامي»، والحقيقة هي ما وراء هذه الأحكام من إشارات وأسرار حسب زعمهم، لقد أهملوا علوم الشريعة لأنها عندهم من علوم الظاهر التي لا تؤدي - بزعمهم - للوصول إلى الحضرة كما هو شأن علم الباطن، ويسمون العلماء بحملة الشريعة، بينما يسمون أنفسهم بحملة الحقيقة.

ومن هنا احتقر المتصوفة العلم وأهله، وقبحوا طريقة العلماء في فهم الكتاب والسنة حتى ترك كثير من علمائهم في القرنين الأخيرين

حلقات التدريس والعلم، واعتزلوا الناس تماماً، ليتفرغوا للأتباع والمريدين.[١]

وقد نقل عن الجنيد أنه كان يقول: «المريد الصادق غني عن علم العلماء، وإذا أراد الله بالمريد خيراً أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء».[٢]

فالفقهاء - في نظر الصوفية - يعلمون الناس أركان الصلاة وسننها، وهم يهتمون بأعمال القلوب من المحبة والخشية، ويقول غلاتهم: إن هذه الأحكام خاصة بعوام المسلمين نظراً لضيق عقولهم وقلوبهم عن استيعاب المعاني العلوية، دون الالتزام برسوم وأشكال معينة... ».[٣]

❁ وقد انحرف غلاتهم بعد ذلك إلى التنفير من علوم الحديث حتى يضعوا الأحاديث لتناسب طرائقهم وبدعهم.. ولهم في ذلك عجائب لا تحصى من ذلك:

ما نقله فريد الدين العطار عن أبي الحسين الخرقاني أنه قال: «وهبني الله جميع العلوم والمعارف، مع كوني أمياً، وقرأت الحديث على

---

(١) انظر: الأحوال الدينية عند المسلمين في القرنين الثالث والرابع عشر الهجريين: رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، سنة ١٤١٤هـ، علي بن بخيت الزهراني.

(٢) طبقات الشعراني: جـ١، ص٨٤، طبعة ١٣٠٥هـ.

(٣) الصوفية: العبدة، ص٥١.

رسول الله ﷺ، فلم يُصَدِّقْهُ مريده، فرأى - المريد - في المنام رسول الله وسمعه يقول: صدق الرجل، صدق الرجل، وقال المريد: بدأت بعدها أتردد إلى الشيخ وأقرأ الحديث، فأحياناً كان يقول: هذا الحديث ليس بصحيح، ولما سألته كيف عرف ذلك؟ قال: لما تقرأ الحديث أشتغل بمشاهدة رسول الله ﷺ، فكلما قرأت الحديث الصحيح يبتسم النبي وتنورت جبهته، وإذا مررت بحديث موضوع ظهرت كآبة على وجهه ﷺ، فبذلك أميز الصحيح من الضعيف».[(١)]

ويصرح الدباغ قائلاً: «قد ينزل الملك على الولي، ويخبره بصحة حديث ضعفه العلماء».[(٢)]

فالمتصوفة يرون أن العلم اللدني ليس بينه وبين الغيب حجاب، أي أنه لا يحتاج إلى إسناد، فوجوده إسناده.

وقد جعلوا حديث الناس حديثاً للنبي المعصوم، معتمدين على كشفهم وإلهامهم، فجعلوا الموضوع ثابتاً، والسقيم صحيحاً، دون النظر إلى رواته قائلين: بأنهم سمعوه عن النبيّ رأساً، أو علموا تصحيحه عن رسول الله مشافهة، أو بواسطة الملك أو بتعليم الخضر.[(٣)]

---

(١) تذكرة الأولياء: فريد الدين العطار، ص٢٧٧، نقلاً عن دراسات في التصوف، ص١٢٩.

(٢) الإبريز: عبد العزيز الدباغ، ص١٥١، طبعة مصر.

(٣) دراسات في التصوف: ص١٣٠-١٣١، إحسان إلهي ظهير.

لقد خالف المتصوفة ما قاله العلماء في أهمية علم الإسناد في الحديث النبوي، فعن عبد الله بن المبارك أنه قال: «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء» رواه مسلم.

وما أكثر ما يقول المتصوفة رداً على أهل الحديث لتمسكهم بالإسناد: «أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت» [١] أي «أخذتم علمكم عن الرجال، رجال السند وقد ماتوا، أما علمهم فقد أخذوه مباشرة عن الحي الذي لا يموت، هذا مع ادعائهم في كتبهم قائلين: «علمنا هذا مؤيد بالكتاب والسنة».

الظاهر والباطن:

لقد ادّعى المتصوفة أن للقرآن ظاهراً وباطناً، فالظاهر هو ما يؤخذ من ألفاظه حسب الفهم العربي، وهو ما يهتم به علماء الظاهر، أما الباطن فهو العلم الخفي وراء تلك الألفاظ، وهو المراد الحقيقي بها، وهذا لا يطلع عليه إلا الخواص من أصحاب المقامات السامية، ويطلقون عليه: «الإشارات» وهم يغمزون أهل الفقه بأنهم لا يهتمون بأعمال القلوب. [٢]

ولعل فكرة الظاهر والباطن تسربت إلى التصوف من التشيع [٣]

---

(١)ذخائر الأخلاق: ابن عربي، ص١٥٣، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة.

(٢)الصوفية: العبدة - طارق عبد الحليم، ص٥١.

(٣)ينظر في: التصوف المنشأ والمصادر: فصل الظاهر والباطن، ص٢٤٣-٢٥٥.

إذ إن الشيعة بجميع فرقها وخاصة الإسماعيلية منهم، يعتقدون أن لكل ظاهر باطناً، وقد اختص بمعرفة الباطن علي رضي الله عنه وأولاده وأئمتهم المعصومون - حسب زعمهم - وقد سموا الموالين لهم بالخاصة، وغير الموالين بالعامة.

ثم قسموا الظاهر والباطن بين النبي ﷺ، والوصي وقالوا: «كانت الدعوة الظاهرة قسط الرسول، والدعوة الباطنة قسط وصيه الذي فاض منه جزيل الأنعام»[1] يقصدون علياً رضي الله عنه ثم قالوا: «إن الظاهر هو الشريعة، والباطن هو الحقيقة، وصاحب الشريعة هو الرسول محمد ﷺ، وصاحب الحقيقة هو الوصي علي بن أبي طالب».[2]

وقال المتصوفة: «العلوم ثلاثة ظاهر، وباطن، وباطن الباطن، كما أن الإنسان له ظاهر وباطن، وباطن الباطن.

فعلم الشريعة ظاهر، وعلم الطريقة باطن، وعلم الحقيقة باطن الباطن».[3]

* ونلاحظ أن التوافق بينهم وبين الباطنية الإسماعيلية في هذه

---

(١) الذخيرة في الحقيقة: للداعي الإسماعيلي علي بن الوليد المتوفى سنة ٦١٢هـ، ص١١٣، طبعة دار الثقافة، بيروت، نقلاً عن التصوف المنشأ والمصادر، ص٢٤٣.

(٢) الافتخار: للداعي أبي يعقوب السجستاني، ص٧١، طبعة لبنان.

(٣) انظر: الفتوحات الإلهية: ابن عجيبة الحسني، ص٣٣٣، طبعة عالم الفكر، القاهرة.

المصطلحات واضح جلي. فما سبب توغل الصوفية في علم الباطن.

* وما سبب التجائهم إليه؟

يقول الصوفية: «إن علم الباطن هو علم القلب، وعلم التصوف علم جليل شريف نفيس وهو أجل العلوم وأشرفها، وهو الزبدة الممخوضة من الشريعة، التي لم تبعث الأنبياء إلا لأجلها»[(١)].

وقالوا:

هل ظاهر الشرع وعلم الباطن ... إلا كجسم فيه روح ساكن

والعلم الظاهر هو علم العبودية، والعلم الباطن هو علم الربوبية.[(٢)]

وسئل بعض علمائهم عن علم الباطن أي شيء هو؟

فقال: «سر من الله تعالى، يقذفه في قلوب عباده، لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً»[(٣)].

ومن أسباب ذلك أيضاً: أن الصوفية تقولوا بكلمات كلها كفر وإلحاد، ونقل عن الباطنية والتشيع، فلما سمع العلماء هذه المقولات كفروهم بها، ورموهم بالإلحاد والزندقة، فلم يسعهم آنذاك إلا القول بالظاهر والباطن والهروب إلى التأويل.[(٤)]

---

(١) التصوف المنشأ والمصادر: إحسان إلهي ظهير، ص٢٤٨.

(٢) الفتوحات الإلهية: ابن عجيبة، ص٣٣٣.

(٣) قوت القلوب: لأبي طالب المكي، ص١٢٠، طبعة دار صادر، بيروت.

(٤) التصوف المنشأ والمصادر: ص٢٥٢.

فالمتصوفة يدعون «أنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه وينتفعون به من غير واسطة، أو أن رسول الله ﷺ مرسل بالشرائع الظاهرة، وهم موافقون له فيها، أما الحقائق الباطنة فلم يرسل بها، أو لم يكن يعرفها، وهم أعرف بها منه، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته».(١)

«ومن ادّعى أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ من له طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلى محمد، فهذا كافر ملحد، وإذا قال: أنا محتاج إلى محمد في علم الظاهر دون علم الباطن، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة، فهو شر من اليهود والنصارى الذين قالوا: إن محمداً رسول إلى الأميين. فكانوا كفاراً بذلك، وكذلك هذا الذي يقول: إن محمداً بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن، آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر...».(٢)

ومن بعض ضلالاتهم «أنهم قد يقولون كما يقول صاحب (الفصوص) ابن عربي: أنهم يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول، وذلك أنهم اعتقدوا (عقيدة المتفلسفة)، ثم أخرجوها في قالب (المكاشفة).(٣)

---

(١) الفتاوى: ابن تيمية، جـ١١، ص٦٥.

(٢) المرجع السابق: جـ١١، ص٢٢٥.

(٣) المرجع السابق: جـ١١، ص٢٢٧.

وقد نتج عن هذه العقيدة المنحرفة أمران خطيران:

١- سقوط التكاليف الشرعية عن نساكهم ومتقدّميهم.

٢- الضلال في تفسير القرآن اعتماداً على التأويل الباطني.

سقوط التكاليف الشرعية:[١]

لقد سلك المتصوفة مسلكاً غريباً في إسقاط التكاليف الشرعية عن مشايخهم، «وفي النساك قوم يزعمون أن العبادة تبلغ بهم إلى درجة تزول فيها عنهم العبادات، وتكون الأشياء والمحظورات على غيرهم مباحات لهم»[٢].

وقد أشار إلى هذا صوفي قديم فقال: «وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة.. واستخفوا بأدائهم العبادات... وركضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات.. وادّعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال»[٣].

«إن نسخ الشريعة المحمدية مما يؤمن به جميع فرق الباطنية ولو أنهم يتظاهرون بإنكاره كما يذكر الغزالي»[٤].

---

(١) انظر: التصوف المنشأ والمصادر: ص٢٦٠-٢٧٤.

(٢) مقالات الإسلاميين: الأشعري، ص٢٨٩.

(٣) الرسالة القشيرية: عبد الكريم القشيري، جـ١، ص٢٢-٢٤، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، طبعة دار الكتب الحديثة، القاهرة.

(٤) فضائح الباطنية: ص٤٦، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت.

وفي سيرة المتصوفة غرائب وعجائب، تبين مدى خروجهم على التكاليف الشرعية.[١]

من ذلك ما ذكره العطار عن أبي يزيد البسطامي أنه خرج مرة للحج فرجع من الطريق، فسألوه عن السبب فقال: لقيني في الطريق رجل حبشي وقال لي: لماذا ترك الله ببسطام؟ فرجعت.[٢]

وذكروا مثل ذلك عن رابعة العدوية فقالوا: «سافرت رابعة إلى مكة فرأت أثناء الطريق كعبة الله تمشي إليها - عياذاً بالله - فقالت: لا أريد الكعبة، بل أريد ربها».

وقال بعضهم: «إن الكعبة طافت بالشيخ إبراهيم المتبولي حجراً حجراً، ثم رجع كل حجر إلى مكانه».[٣]

«وقالوا مثل ذلك في الزكاة، فلما سئل الشبلي كم في خمس من الإبل؟

قال: في واجب الشرع شاة، وفيما يجب على أمثالنا، كلها لله».[٤]

وقد سئل ابن تيمية رحمه الله عن هؤلاء وطرائقهم، وما الحكم

---

(١) انظر: دراسات في التصوف: إحسان إلهي ظهير، ص١٠٠-١٠٥.

(٢) تذكرة الأولياء: فريد الدين العطار، ص٨٢، طبعة باكستان.

(٣) جامع كرامات الأولياء: النبهاني، جـ١، ص٢٤٥.

(٤) قواعد التصوف: لأحمد بن رزق، ص٢٠، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٧٦م. والفتوحات الإلهية: ابن عجيبة الحسني، ط١، ص٥١، ط عالم الفكر بالقاهرة.

فيهم؟

«سئل عن قوم داوموا على الرياضة، فرأوا أنهم قد تجوهروا فقالوا: لا نبالي الآن ما عملنا، وإنما الأوامر والنواهي رسوم العوام، ولو تجوهروا لسقطت عنهم، وحاصل النبوة يرجع إلى الحكمة والمصلحة، والمراد منها ضبط العوام، ولسنا نحن من العوام، فندخل في حجر التكليف - فهل هذا القول كفر من قائله؟ أم يبدع من غير تكفير؟».

أجاب رحمه الله: «لا ريب عند أهل العلم والإيمان أن هذا القول من أعظم الكفر وأغلظه، وهو شر من قول اليهود والنصارى، فإن اليهودي والنصراني آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض»[(١)].

وقال رحمه الله أيضاً: «إن هؤلاء خارجون في هذه الحال عن جميع الكتب والشرائع والملل، لا يلتزمون لله أمراً ولا نهياً بحال، بل هؤلاء شر من المشركين المستمسكين ببقايا من الملل»[(٢)].

وسئل رحمه الله عمن يقول: «إن غاية التحقيق وكمال الطريق، ترك التكليف بحيث أنه إذا ألزم بالصلاة يقوم ويقول: خرجنا من الحضرة، ووقفنا بالباب» فأجاب رحمه الله، بقوله:

«أما من جعل كمال التحقيق الخروج من التكليف فهذا مذهب الملاحدة من القرامطة والباطنية، ومن شابههم من الملاحدة المنتسبين

---

(١) الفتاوى: ابن تيمية، جـ١١، ص٤٠١.

(٢) المرجع السابق: جـ١١، ص٤٠٢.

إلى علم أو زهد، أو تصوف أو تزهد. يقول أحدهم، «إن العبد يعمل حتى تحصل له المعرفة، فإذا حصلت زال عنه التكليف، ومن قال هذا: فإنه كافر مرتد باتفاق أئمة الإسلام، فإنهم متفقون على أن الأمر والنهي جاء على كل بالغ عاقل، إلى أن يموت.

قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩].

واليقين هنا ما بعد الموت...»[١].

هذا ما توصل إليه المتصوفة من انحراف وتبديل لدين الله، بينما كان الأولون منهم يقيدون زهدهم وتصوفهم بالكتاب والسنة.

قال الجنيد: «علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن، ولم يكتب الحديث، لم يصح له أن يتكلم في علمنا هذا».

وقال سهل التستري: «كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل»[٢].

التأويل الباطني في التفسير:

إن التفرقة بين الظاهر والباطن قد أدت بالمتصوفة إلى تأويل الآيات وتحريفها تحريفاً شنيعاً، وقد حاولت كل الفرق الضالة الباطنية

---

(١) المرجع السابق: جـ١١، ص٥٣٩.

(٢) المرجع السابق: جـ١١، ص٥٨٥.

أن تجد في التأويل نصيراً لها من كتاب الله، يتناسب وأهواءها.

ولذلك ضبط علم التفسير عند أهل السنة بـ«أصول التفسير» حتى لا يتحول الأمر إلى فوضى لا نهاية لها، وإليك غرائب التفسير عندهم.

ففي تفسير آية ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام:٧٦]. قال فيها صاحب منازل السائرين: «رأى هذه: حالة العطش كأن إبراهيم عليه السلام لشدة عطشه إلى لقاء محبوبه، لما رأى الكواكب قال: هذا ربي، فإن العطشان إذا رأى السراب ذكر به الماء».

وآية: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ فسرها الشيخ عبد الغني النابلسي - وهو من المتأخرين - «أي صورتك الظاهرة والباطنة، يعني جسمك وروحك، فلا تنظر إليها لأنها نعلاك»[1].

ومن ذلك التفسير الإشاري، والتأويلات الصوفية للقرآن:

ما يذكره ابن عطاء الله الإسكندري في لطائفه نقلاً عن بعض مشايخه أنه فسر الآية ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ [الشورى:٤٩] الحسنات، ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى:٤٩] العلوم، ﴿أَوْ

---

(١) شطحات الصوفية: عبد الرحمن بدوي، ص١٩٥. وانظر: الصوفية: محمد العبدة، ص٥٣-٥٤.

﴿يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ [الشورى:٥٠] علوماً وحسنات.. الخ.(١)

ومن ذلك يقول ابن عربي في تفسير قول الله عز وجل:

﴿الٓمٓ﴾ أشار بهذه الحروف إلى كل الوجود حيث هو كلّ، لأن (أ) إشارة إلى ذات الله الذي هو أول الوجود.. و(ل) إلى العقل الفعال المسمى «جبريل».. و(م) إلى محمد الذي هو آخر الوجود».(٢)

وقد جمع للمتصوفة أبو عبد الرحمن السلمي تفسيراً للقرآن الكريم من كلامهم الذي أكثره هذيان، يبلغ مجلدين، «فقد أتى بمصائب وتأويلات باطنية نسأل الله العافية».(٣)

ومما نقله الدكتور عبد الحليم محمود عن أبي الحسن الشاذلي تفسير قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿هِىَ عَصَاىَ﴾ [طه:١٨] أي معرفتي بك أعتمد عليها، ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ [طه:١٨] أولادي في التربية، ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [المائدة:١٨]

---

(١) لطائف المتن: ابن عطاء الله الاسكندري، ص٢٤٨، تحقيق: عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر، مطبعة حسان، القاهرة.

(٢) تفسير ابن عربي: جـ١، ص٥، طبعة طهران، نقلاً عن التصوف المنشأ والمصادر، ص٢٧٩.

(٣) تذكرة الحفاظ: الذهبي، جـ٣، ص٢٤٩، طبعة القاهرة.

من باب: لي وقت مع ربي لا تسعني فيه أرض ولا سماء.[(١)]

فالصوفية يعتقدون أن العامة يأخذون بالظواهر، وأكثر الشريعة جاء حسب فهمهم، أما المتصوفة فهم العارفون وهم أهل الحقائق.

ولذلك يقول ابن عربي: «ما خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته... الذين منحهم أسراره في خلقه، وفهم معاني كتابه وإشارات خطابه».[(٢)]

---

(١) المدرسة الشاذلية الحديثة: د. عبد الحليم محمود، ص٤٠٣، طبعة القاهرة.

(٢) الفتوحات المكية: ابن عربي، الباب الرابع والخمسون، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٥هـ.

المبحث الثاني
الأولياء والكرامات

من أكثر الأشياء التي تعلق بها المتصوفة قديماً وحديثاً هو موضوع الأولياء وما يحصل لهم من كرامات وخوارق العادات. فما الولي لغة؟ وما حقيقة الولاية الشرعية؟ وما تصور الولاية لدى المتصوفة؟

الولي لغة:

«القريب، والولاية ضد العداوة، وأصل الولاية المحبة والتقرب، والمراد بأولياء الله: خلّص المؤمنين».

قال ابن تيمية رحمه الله: الولي سمّي ولياً من موالاته للطاعات، أي متابعته لها، ويقول ابن حجر العسقلاني: المراد بوليّ الله، العالم بالله تعالى، المواظب على طاعته».

هكذا كانت النظرة إلى الولاية حتى دخل المصطلح أوساط الشيعة والصوفية، فأطلقت الولاية على أئمتهم ومشايخهم، مراعين فيه اعتبارات أخرى جديدة.

فالصوفية: يرون أن أكبر مقامات الولي عندهم هو (الفناء) وهو باب الولاية ومقامها.

ويرى القشيري: «أن من أجل الكرامات التي تكون للأولياء هي

العصمة من المعاصي والمخالفات» وهذه قلدوا فيها الشيعة الذين يعتقدون العصمة في أئمتهم.

أما عند ابن عربي فهي مراتب ومنها مرتبة «الولاية الخاصة» والأولياء هم الورثة لأنهم أخذوا علمهم عن الله مباشرة؟[١]

يقول ابن عربي: «علماء الرسوم - يقصد علماء الشريعة - يأخذون عن السلف إلى يوم القيامة، والأولياء يأخذون عن الله ألقاه في صدورهم رحمة منه، وعناية سبقت لهم من ربهم»[٢].

«أي أنهم يزعمون: أن علماء الشريعة إنما يأخذون عن السلف وقد طواهم الموت، أما هم فيأخذون عن الله مباشرة من غير واسطة ملك أو نبي، وبهذا كفروا بشريعة محمد ﷺ»[٣].

والولاية الحقة: لا تكون إلا باتباع السنة. يقول ابن تيمية: «فأولياء الله المتقون هم المقتدون لمحمد ﷺ فيفعلون ما أمر به، وينتهون عما زجر عنه، فيؤيدهم الله بملائكته وروح منه، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين، وخيار أولياء الله تكون كراماتهم لحجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ، كذلك وكرامات أولياء الله إنما حصلت

---

(١) الصوفية: محمد العبدة، ص٦٤،٦٣.

(٢) هذه هي الصوفية: عبد الرحمن الوكيل، ص١٢٩، عن فصوص الحكمة لابن عربي، ص١٣٠.

(٣) المرجع السابق: ص١٣٠.

ببركة اتباع رسوله ﷺ، فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ»[(١)]

الكرامات عند الصحابة والتابعين:[(٢)]

وقد حصل للصحابة رضوان الله عليهم كرامات، وكانت إما لحاجة أو حجة في الدين، من ذلك ما أكرم الله به أم أيمن عندما هاجرت وليس معها زاد ولا ماء، فكادت أن تموت من العطش، وكانت آنذاك صائمة، فلما كان وقت الإفطار سمعت حساً على رأسها، فإذا دلو معلق فشربت منه، حتى رويت، وما عطشت بقية عمرها.

وكان البراء بن مالك إذا أقسم على الله أبر قسمه، كما كان سعد بن أبي وقاص مستجاب الدعوة، فما دعا قط إلا استجيبت دعوته، وعندما ألقي أبو مسلم الخولاني في النار، لم تحرقه. رضي الله عن صحابة رسول الله أجمعين.

وعندما كان خبيب بن عدي رضي الله عنه أسيراً عند المشركين بمكة، كان يؤتى بعنب يأكله، وليس بمكة عنبة آنذاك.

ومن التابعين[(٣)]: كان الحسن البصري قد تغيب عن الحجاج، ودخلوا عليه ست مرات، فدعا الله عز وجل فلم يروه. وكان سعيد

---

(١) مجموع الفتاوى: جـ١١، ص٢٧٤.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ابن تيمية، جـ١١، ص٢٧٥-٢٨٣.

(٣) المرجع السابق: جـ١١، ص٢٨٠-٢٨٣.

بن المسيب في أيام الحرة يسمع الأذان من قبر رسول الله ﷺ، أوقات الصلوات، وكان المسجد قد خلا فلم يبق غيره.

وينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بسبب حاجة الرجل فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان، أو المحتاج أتاه منها ما يقوي إيمانه، ويسد حاجته، ويكون مَنْ هو أكمل منه ولاية لله، مستغنياً عن ذلك، فلا يأتيه مثل ذلك، لعلو درجته وغناه عنها، لا لنقص ولايته، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين، أكثر منها في الصحابة... وهذا بخلاف الأحوال الشيطانية.

الأحوال الشيطانية والمعجزات: قد يخدم الجن والشياطين بعض الكفرة أو الفسقة، فيخبرونهم بالأمور الغيبية، أو يؤدون لهم خدمات خارقة.

«فالأسود العنسي الذي ادّعى النبوة، كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيبة، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه، حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين لها كفره فقتلوه.

«وكذلك مسيلمة الكذاب، كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات ويعينه على بعض الأمور..

فأهل الأحوال الشيطانية، تنصرف عنهم شياطينهم عادة، إذا ذكر عندهم ما يطردها مثل آية الكرسي..

ومن هؤلاء من يأتيه الشيطان بأطعمة وفواكه وحلوى وغير

ذلك مما لا يكون في ذلك الموضع، ومنهم من يطير بهم الجني إلى مكة أو بيت المقدس أو غيرهما، ومنهم من يحمله شيطانه عشية عرفة، ثم يعيده من ليلته فلا يحجّ حجاً شرعياً بل يذهب بثيابه ولا يحرم إذا حاذى الميقات ولا يلبي.. ولا يعتبر له حج».[١]

الفرق بين كرامات الأولياء وما يشبهها من الأحوال الشيطانية:

إن كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى، أما الأحوال الشيطانية فسببها ما نهى الله عنه ورسوله... فالاستغاثة بالمخلوقات.. والشرك والظلم والفواحش من الأحوال الشيطانية، وليست من الكرامات الرحمانية.

ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق حي أو ميت، سواء كان ذلك الحي مسلماً أو نصرانياً أو مشركاً، فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به، ويقضي به حاجة ذلك المستغيث... ومنهم من يتصور له الشيطان يقول له: أنا الخضر، وربما أخبره ببعض الأمور وأعانه على بعض مطالبه.[٢]

«ومنهم من يرى عرشاً في الهواء وفوقه نور، ويسمع من يخاطبه ويقول: أنا ربك، فإن كان من أهل المعرفة علم أنه شيطان، فزجره واستعاذ بالله منه فيزول.

---

(١) انظر: المرجع السابق: ابن تيمية، جـ١١، ص٢٨٤-٢٨٨.

(٢) انظر: الفتاوى: ابن تيمية، جـ١١، ص٢٨٤-٢٨٨.

«ومنهم من يرى أشخاصاً في اليقظة، يدعي أحدهم أنه نبي أو صديق أو شيخ من الصالحين..

فهذه أحوال شيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة، وهم درجات، والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم، وهم على مذهبهم...

ومثل هذه الأمور يطول وصفها، والإيمان بها إيمان بالجبت والطاغوت، والجبت السحر.

وإن كان الرجل مطيعاً لله ورسوله، لم يمكنهم الدخول معه في ذلك، أو مسالمته».(١)

ويقول ابن تيمية في هؤلاء من مدعي الولاية: «ولهذا لو ذكر الرجل الله سبحانه وتعالى دائماً، ليلاً ونهاراً مع غاية الزهد، وعبده مجتهداً في عبادته، ولم يكن متبعاً لذكره الذي أنزله - وهو القرآن - كان من أولياء الشيطان، ولو طار في الهواء أو مشى على الماء، فإن الشيطان يحمله في الهواء».(٢)

الكرامات عند المتصوفة:

تمتلئ كتب المتصوفة بذكر الغرائب والشطحات التي لا تخضع إلى عقل، ولا تنسجم مع منطق سوي. من ذلك ما رواه الشعراني في طبقاته من أن بعض مريدي البدوي ذكر: أن أحد زملائهم وهو إسماعيل الأنباني كان صاحب كرامات، فقد كلمته البهائم، وكان يخبر

---

(١) المرجع السابق: جـ١١، ص٢٨٩-٢٩٠، جـ١١، ص١٧٣.

(٢) المرجع السابق نفسه.

أنه كان يرى اللوح المحفوظ، ويقول: يقع كذا وكذا لفلان، يجيء الأمر كما قال، فأنكر عليه شخص من علماء المالكية، وأفتى بتعزيره فبلغ ذلك سيدي إسماعيل فقال: ومما رأيته في اللوح المحفوظ أن هذا القاضي يغرق في بحر الفرات».

وقال الشعراني: «وأخبرني شيخنا محمد الشناوي أن شخصاً أنكر حضور مولد سيدي أحمد البدوي، فسلب الإيمان، فلم يكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام، فاستغاث بسيدي أحمد فقال: بشرط أن لا تعود، فقال: نعم، فرد عليه ثوب إيمانه. ثم قال له: وماذا تنكر علينا؟ قال: اختلاط الرجال والنساء، فقال سيدي أحمد: ذلك واقع في الطواف ولم يمنع أحد منه، ثم قال: وعزة ربي، ما عصى أحد في مولدي إلا وتاب وحسنت توبته، وإذا كنت أرعى الوحوش والسمك في البحار، وأحميهم من بعضهم بعضاً، أفيعجزني في الله عز وجل عن حماية من يحضر مولدي»؟

فهذا فيه من الاستغاثة بغير الله وهو من أعظم الشرك، وأكبر الفتنة.[١]

ومن شطحات الصوفية، ما ذكره محمد بن علي الحكيم الترمذي في كتابه (ختم الولاية)، وهو مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف، حيث غلا في ذكر الولاية فقال: «فكما أن محمداً ﷺ آخر الأنبياء،

(١) عن كتاب: التصوف في ميزان البحث والتحقيق: عبد القادر بن حبيب الله السندي، مكتبة ابن القيم في المدينة النبوية، ١٤١٠هـ.

فأعطي خاتم النبوة، وهو حجة الله على جميع الأنبياء، فكذلك هذا الولي آخر الأولياء في آخر الزمان... فإذا أتى وقت زوال الدنيا، بعث الله ولياً اصطفاه واجتباه وقربه وأعطاه ما أعطى الأولياء، وخصه بخاتم الولاية، فيكون حجة الله يوم القيامة على سائر الأولياء... فإذا برز الأولياء يوم القيامة ينصب له مقام الشفاعة، فلم يزل هذا الولي مذكوراً أولاً في البدء، أولاً في الذكر، أولاً في العلم، ثم الأول في اللوح المحفوظ والأول في الحشر وفي الشفاعة...»[(١)].

وماذا بعد هذا القول من الضلال والغلو؟

وهنالك نوع من الغلو يطلق على أصحابه **المجاذيب**: إذ ترفع عنهم التكاليف، وقد يكون المجذوب بجسده على الأرض، بينما يكون عقله سابحاً في ملكوت السماء، يطلع على الغيب، ويخبر من حوله من الناس بالمغيبات، بعد أن كشف له الحجاب - هكذا يزعمون.

والجذبة عند الصوفية توازي عمل الثقلين عندهم، وتعني الجذبة أن الله يجذب الصوفي إلى حضرته ويكشف له الحجاب.

والمجذوب في واقع الحال لا يعدو أن يكون - في أغلب الأحيان - مجنوناً أو دجالاً متظاهراً بالجنون، لكن الجماهير تعتقد أنه جن عندما كشف له الحجاب، وجذبه الخالق، لأنه ما عاد يحتمل عالم الغيب الرهيب...

وقد كثر هؤلاء ممن يمشون في الطرقات مكشوفي العورات،

---

(١) الفتاوى: ابن تيمية، جـ١١، ص٣٧٣-٣٧٦.

ومرتكبين للمباحات والمحرمات.[١]

هذا ويمتلئ كتاب الطبقات للشعراني بقصص هؤلاء المجذوبين ويعتقد المتصوفة بأنهم أولياء الله، فلا يعترض عليهم خشية أن يصيب المعترض ما لا تحمد عقباه.

من ذلك ما ورد في خبر أحد الشيوخ الذين ترجم لهم، من أنه كان يغلب عليه الحال، فيتكلم بالألسن العبرانية والسريانية والعجمية، وتارة يزغرت في الأفراح والأعراس كما تزغرت النساء.[٢]

وجاء في خبر شيخ آخر: أنه كان يتشوش من قول المؤذن؟ «الله أكبر» فيرجمه ويقول: «نحن كفرنا يا مسلمين؟ حتى تكبروا علينا؟».[٣]

فهذا وإن كان لا يعبر عن رأي الصوفية جميعهم، إلا أنه يدلنا على سبب انتشار هذه الخرافات في العالم الإسلامي، وأن هؤلاء المعتوهين تصنع لهم الهالات ويعتبرون من أولياء الله المقربين؟

ويرى الصوفية أنه في حالة الجذب قد يصل المرء إلى درجة من فقدان الوعي، حتى أنه لا يرى ولا يسمع وقد يهيم على وجهه، كما ورد ذلك عن سهل بن عبد الله «أبو حمزة البغدادي» وأنه ظل مرة مستمراً في انجذابه خمسة وعشرين يوماً، لا يطعم وإن أجاب عن

---

(١) انظر: الأحوال الدينية عند المسلمين: علي بن بخيت الزهراني، ص٣٣٢-٣٣٦.

(٢) الطبقات الكبرى: الشعراني، ص١١٥، في ترجمة الشيخ محمد السروري، ت٩٣٢هـ.

(٣) السابق: ص١٢٦، في ترجمة الشيخ إبراهيم عصيفر، ت٩٤٢هـ.

مسائل يسألها له أهل العلم»[١].

والقول الفصل في مدّعي الولاية: ما قاله ابن تيمية رحمه الله، قال: «من اعتقد أن لأحد من الأولياء، طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ، فهو كافر من أولياء الشيطان، ولو بلغ الرجل في الزهد والعبادة والعلم ما بلغ، ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد فليس بمؤمن ولا ولي لله تعالى كالأحبار والرهبان من علماء اليهود والنصارى وعبادهم... وكل من له علم أو زهد وعبادة في دينه وليس مؤمناً بجميع ما جاء به فهو كافر عدو لله، وإن ظن طائفة أنه ولي لله».

«والناس يتفاضلون في ولاية الله بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى»[٢].

❋❋❋

(١) انظر: حلقات الصوفية: السلمي، ص٢٩٥، وكتاب موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية: د.أحمد البناني، ص٢٤٤.

(٢) الفتاوى: ابن تيمية، جـ١١، ص١٧٠-١٧٥.

المبحث الثالث
الصلة بين التصوف والتشيع

وفيه مطلبان:

الأول: التشابه بين التصوف والتشيع في الأفكار والمعتقدات.

الثاني: مدرسة التشيع الصوفي وأهدافها السياسية في القرن السابع الهجري.

إن تغلغل التشيع في أفكار الصوفية ومعتقداتهم لأمر مريب حقاً، فإضافة إلى تقسيم الشريعة إلى ظاهر وباطن، والغلو في ادّعاء الولاية والتقديس للأئمة والأولياء، فإن هنالك تشابهاً وتطابقاً في كثير من المعتقدات والأفكار نوجزها في النقاط التالية:

أ- التشابه في مراتب الصوفية ودرجاتهم.

ب- الغلو في علي رضي الله عنه، وفي ذريته.

جـ- التشابه في ادّعاء علم الغيب والعروج إلى السماء، وتنزل الملائكة عليهم.

د- الاعتقاد في عصمة الأئمة والأولياء.

وقد صدرت رسائل ودراسات في بيان الصلة بين التصوف والتشيع، ولم يعد الأمر سراً من الأسرار.[1]

---

(١) ينظر: الصلة بين التصوف والتشيع: د. كامل مصطفى الشيبي، ط بيروت، ١٩٨٢م.

المطلب الأول
التشابه الكبير في الأفكار والمعتقدات

أ- في مراتب الصوفية ودرجاتهم:

لقد وضع المتصوفة مراتب ودرجات لبيان طبقات الصوفية ومكانتهم، وهم حسب كلام لسان الدين بن الخطيب: «خواص الله في أرضه، ورحمة الله في بلاده على عباده، الأبدال والأقطاب والأوتاد والعرفاء والنجباء والنقباء، وسيدهم الغوث».

وقد رتبوا أولياءهم حسب أهميتهم على الشكل التالي:

١ - القطب أو الغوث وهو مقيم بمكة.

٢- الأوتاد الأربعة: وهم أربعة رجال، منازلهم على منازل الأربعة أركان من العالم، شرق غرب وشمال وجنوب.

٣- الأبدال وعددهم أربعون وهم بالشام؟ وعند الجرجاني في تعريفاته: هم سبعة رجال، من سافر من موضع ترك جسداً على صورته حياً بحياته.

٤- النجباء وهم الذين يحملون عن الخلق أثقالهم، عددهم سبعون وهم بمصر.[1]

---

(١) انظر: الجرجاني: التعريفات ص٣٩، ٢٣. التصوف المنشأ والمصادر: ص٢٣١. التصوف: عبد القادر السندي، ص٥٢٥. والصوفية: محمد العبدة، ص٧٠-٧١.

والقطب عندهم كما يقول مؤسس الطريقة التيجانية: «هو الخلافة عن الحق مطلقاً فلا يصل إلى الخلق شيء من الحق (الله) إلا بحكم القطب».(١)

ويلاحظ أن صلة التصوف بالتشيع صلة قوية ظاهرة، في هذه الدرجات والمراتب، وهذا ما أشار إليه ابن خلدون إذ يقول: «إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس، توغلوا في ذلك، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة.. كابن عربي وابن سبعين وابن الفارض، وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول وإلهية الأئمة، مذهباً لم يعرف لأولهم، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر، واختلط كلامهم، وتشابهت عقائدهم، وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب... وقد أشار إلى ذلك ابن سينا «في كتاب الإشارات في فصول التصوف»... وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي، وإنما هو بعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به، ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء».(٢)

ويقول ابن تيمية رحمه الله: «وهؤلاء الذين يدعون هذه المراتب، فيهم مضاهاة للرافضة من بعض الوجوه، بل هذا الترتيب والأعداد تشبه من بعض الوجوه ترتيب الإسماعيلية والنصيرية ونحوهم، في

---

(١) هذه هي الصوفية: ص١٢٥، عبد الرحمن الوكيل، طبعة دار الكتب العلمية.

(٢) مقدمة ابن خلدون: الفصل الحادي عشر في علم التصوف، ص٤٧٣، طبعة القاهرة.

السابق والتالي والناطق والأساس... وغير ذلك من الترتيب الذي ما نزل الله به من سلطان»[١].

ويقول أيضاً: «وكل حديث يروى عن النبي ﷺ، في عدة الأولياء والأبدال والنقباء والنجباء والأوتاد أو القطب الواحد، فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي ولم يرد عن السلف»[٢].

ب- الغلو في عليّ وبنيه:

من الملاحظ أن سلاسل التصوف كلها -ما عدا النادر القليل منها- تنتهي إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، دون سائر أصحاب رسول الله ﷺ.

ونجد أن في طرق إسنادها إلى عليّ رضي الله عنه وأبنائه دون غيرهم، ومما يذكر أن رؤساءهم لهم اتصال وثيق وصلات وطيدة مع أئمة الرافضة، كما تذكره تراجمهم وسيرهم وأحوالهم، إضافة إلى الخرقة الصوفية التي لا يبدأ ذكرها أيضاً إلا من علي رضي الله عنه أيضاً»[٣].

فعليّ رضي الله عنه حسب كلام المتصوفة: «من أصحاب العلم، وممن يعلمون من الله ما لم يعلمه غيره»[٤].

---

(١) الفتاوى: ابن تيمية، جـ١١، ص٤٣٩.

(٢) المرجع السابق: جـ١١، ص١٦٧.

(٣) انظر: التصوف المنشأ والمصادر: إحسان إلهي ظهير، ص١٤٧-١٥٨.

(٤) الفتوحات المكية: ابن عربي، جـ١، ص٢٦٠.

وهذا الغلو في عليّ وأبنائه لا يقل عن غلو الشيعة فيه، وإليه تنسب سلاسل التصوف كلها عند الشيعة كذلك، فقد كان «الصوفي المشهور أبوالعباس المرسي تلميذ الشاذلي يقول: «طريقتنا هذه لا تنسب للمشارقة ولا للمغاربة، بل واحد عن واحد إلى الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو أول الأقطاب»(١).

ويعتبر الرفاعيون أن الرفاعي زعيم طائفتهم هو الإمام الثالث عشر بعد الثاني عشر الموهوم، الذي لم يولد(٢).

إن الانتساب إلى آل البيت نسباً أو طريقةً مما يجذب عامة المسلمين، ويساعد على إخفاء الانحرافات والأهداف المشبوهة.

جـ- التشابه في ادّعاء علم الغيب والعروج إلى السماء وتنزل الملائكة عليهم(٣):

يرى الشيعة أن الإمام علي كان ينزل عليه الوحي ويكلمه الله ويناجيه بلا حجاب، ثم توارث هذه الأوصاف خلفه من بعده إلى خاتم الأئمة، وقد ورد في كتاب (الكافي) للكليني، وهو كالبخاري عند أهل السنة، أن جعفر الباقر الإمام المعصوم السادس لدى الشيعة قال: «وكان أمير المؤمنين عليه السلام كثيراً ما يقول: أنا قسيم الله بين الجنة والنار، وأنا الفاروق الأكبر... ولقد أقرت لي جميع الملائكة

---

(١) طبقات الشعراني: جـ٢، ص١٤.

(٢) المجالس الرفاعية: ص٦، أحمد الرفاعي، مطبعة الإرشاد، بغداد.

(٣) انظر: التصوف المنشأ والمصادر: من ص١٥٩ حتى ص١٨٥.

والروح والرسل بمثل ما أقروا به لمحمد ﷺ... ولقد أعطيت خصالاً ما سبقني إليها أحد قبلي، علمت المنايا والبلايا، والأنساب وفصل الخطاب...»[١].

ويرون كذلك أن أئمتهم أفضل من الأنبياء -كما صرح بذلك الكليني- وأن الإمامة فوق النبوة. وقال الخميني مثل ذلك في كتابه ولاية الفقيه قال: «إن من ضروريات مذهبنا أنه لا ينال أحد المقامات المعنوية الروحية للأئمة، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل».

وإذا رجعنا إلى آراء الصوفية المبثوثة في كتبهم نجدها مطابقة لما عند الشيعة في هذه المعتقدات تماماً.

يقول الصوفي الكبير عبد القادر الحلبي المعروف بابن قضيب البان: «كل ما خصت به الأنبياء خصت به الأولياء»[٢].

ونقل النفزي الرندي عن بعض المشائخ أنه قال: «إن الملائكة تزورني فآنس بها، وتسلم عليّ فأسمع تسليمها»[٣].

ويقول ابن عربي: «إن القطب ينزل على قلبه الروح الأمين،

---

(١) الأصول من الكافي: جـ١، ص١٩٦-١٩٧، طبعة إيران، نقلاً عن المرجع السابق ص١٦٠.

(٢) المواقف الإلهية: ابن قضيب البان، ص٢٠، ملحق بكتاب الإنسان الكامل لعبد الرحمن بدوي، طبعة وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٦م.

(٣) غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية: النفزي الرندي، ١/ ٢٦٢، طبعة دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٠م.

حيث يذكر في كتابه مواقع النجوم:[1]

وهذا المقام -أي مقام القطب- وهذه أسراره رفع الحجاب وأشرقت أنواره
وبدا هلال التم يسطع نوره للناظرين وزال عنه سراره
وتنزل الروح الأمين لقلبه يوم العروبة وانقضت أوطاره

ويعتقدون كذلك **بعروج المتصوفة إلى السماء** ووقوفهم بين يدي الرب ومناجاتهم له. يقول أحد المتقدمين من الصوفية نجم الدين كبرى المقتول سنة ٦١٨هـ: «إنه ممن عرج به إلى السماء» أما ابن عربي، فقد جعل عروجه محاكياً المعراج النبوي الشريف (في كتابه الإسراء). ومثل هذا الانحراف كثير في كتبهم.[2]

ولما حصل الاختلاف بين علماء بخارى في **إمكان رؤية الله أم لا؟!** تحاكموا عند شيخ الطريقة النقشبندية «شاه نقشبند» فقال للذين ينفون الرؤية: أقيموا في صحبتي ثلاثة أيام متطهرين، فلما مضت ثلاثة أيام حصل لهم حال قوي فصعقوا، فلما أفاقوا جعلوا يقبلون قدمه الشريف وقالوا: آمنا أن الرؤية حق، ثم لم ينقطعوا عن خدمته».[3]

ولا يجوز بحال أن يزعم أحد بأنه يرى ربه، وهذه فرية عظيمة

---

(١) مواقع النجوم: ابن عربي: ص١٠٢، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة بمصر.

(٢) انظر: التصوف: إحسان إلهي ظهير، ص١٦٦ وما بعدها.

(٣) المواهب السرمدية: ص١٤٥-١٤٦، نقلاً عن النقشبندية: عبد الرحمن دمشقية، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٤هـ.

يقشعر لها بدن المؤمن، فهل يعقل أن يقول الله لموسى عليه السلام: «لن تراني» ويسمح لأمثال هؤلاء برؤيته؟!

ولما سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها: هل رأى محمد ربه؟ قالت: سبحان الله! لقد وقف شعري لما قلت». رواه مسلم برقم (٢٨٩).

وعنها رضي الله عنها أنها قالت: «من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية».

ويزعم المتصوفة **أنهم يطلعون على الغيب**: «لأنه إذا انكشفت الحجب عن القلب، تجلى فيه شيء مما هو مستور في اللوح المحفوظ»[1].

ويقول أحد غلاتهم: «ما السماوات السبع والأرضون السبع في نظر العبد المؤمن إلا كحلقة ملقاة في فلاة»، «وإن الجنين إذا سقط من بطن أمه يراه العارف في تلك الحالة إلى آخر عمره»[2].

وهذا كله يتعارض مع بدهيات الإسلام، ومع قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى

(١) حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب: عماد الدين الأموي، وبها مسند قوت القلوب لأبي طالب، طبعة دار صادر، بيروت، ص٢٦١.

(٢) الإبريز: عبد العزيز الدباغ، طبعة مصر، ص٢٤٢-٢٧٤.

ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

[الأنعام:٥٩].

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود:٤٩].

إلا أن غرائب المبتدعة وادّعاءاتهم تكاد لا تنتهي.

د- العصمة:[١]

يرى المتصوفة في أوليائهم أنهم محفوظون (أي معصومون)، كما يعتقد الشيعة في أئمتهم العصمة، لأن الإمام عندهم يجب أن يكون معصوماً.

قال ابن بابويه الملقب بالصدوق عند الشيعة: «اعتقادنا في الأنبياء والرسل والأئمة والملائكة عليهم السلام أنهم معصومون مطهرون من كل دنس، وأنهم لا يذنبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً.. ومن نفى عنهم العصمة في شيء من أحوالهم فقد جهلهم، ومن جهلهم فهو كافر»[٢].

---

(١) انظر: التصوف المنشأ والمصادر: إحسان إلهي ظهير، ص٢٠١-٢١٢.

(٢) اعتقادات الصدوق: ص١٠٨، طبعة إيران نقلاً عن التصوف المنشأ والمصادر.

وغلاة المتصوفة يصرحون بعصمة أوليائهم. قال ابن عربي: «إن من شرط الإمام الباطن (يعني الولي) أن يكون معصوماً وليس الظاهر كذلك»[(١)].

وقالوا: «ومن شرط الولي أن يكون محفوظاً، كما أنه من شرط النبي أن يكون معصوماً»[(٢)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الباب موضحاً ضلال الطائفتين: «وكذلك الرافضة موصوفون بالغلو عند الأئمة... وهؤلاء الإمامية يدعون ثبوت إمامة عليّ بالنص، وأنه كان معصوماً، هو وكثير من ذريته...

ومن جعل بعد الرسول معصوماً - يجب الإيمان بكل ما يقوله - فقد أعطاه معنى النبوّة، وإن لم يعطه لفظها..

وكثير من الغلاة في المشايخ يعتقد أحدهم في شيخه نحو ذلك، ويقولون: «الشيخ محفوظ، ويأمرون باتّباعه في كل ما يفعل، لا يخالف في شيء أصلاً، وهذا من جنس غلو الرافضة والنصارى والإسماعيلية... ومعلوم أن كل هذه الأقوال مخالفة لدين الإسلام، للكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة وأئمتها...

وقد اتفق أهل العلم، أهل الكتاب والسنة، على أن كل شخص

---

(١) الفتوحات المكية: جـ٣، ص١٨٣.

(٢) الرسالة القشيرية: جـ٢، ص٥٢١. مواقع النجوم: ابن عربي، ص٨٠. غيث المواهب: النفزي، ص١٣١.

سوى الرسول، فإنه يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، فإنه يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، فإنه المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى»[1].

وأخيراً: أخي القارئ!

هل كان هذا التطابق في الأفكار والمعتقدات والتصورات، عفوياً وبلا سابقة من التخطيط والسعي الدائب لتخريب معتقدات الأمة؟!

ألا يذكرنا هذا بفتنة عبد الله بن سبأ اليهودي الأصل، والذي اتخذ التشيع لعليّ رضي الله عنه ستاراً لبث سموم يهود ومعتقداتهم، وذريعة للفتنة وإراقة الدماء منذ فجر الإسلام؟!

ألم يحرق عليّ رضي الله عنه أصحاب عبد الله من السبئية، ثم هم بقتل ابن السوداء فهرب إلى أقاصي خراسان؟!

وهاهم أحفاد ابن سبأ يعيثون الفساد في عقيدة المسلمين عن طريق غوغاء التصوف والصوفية، فعلينا أن نعيد النظر في دراسة هذه البدع، وتنقية الدين مما شابه من شوائب دخيلة.

❁❁❁

---

(١) منهاج السنة النبوية: ابن تيمية، ص١٧٤، ١٧٥، طبعة لاهور، باكستان.

المطلب الثاني

مدرسة التشيع الصوفي وأهدافها السياسية في القرن السابع الهجري[١]

بعد أن ضعفت الخلافة العباسية في بغداد، وخراب التتار لها فطن الشيعة الباطنيون لإعادة الخلافة العبيدية التي قضى عليها السلطان صلاح الدين، ومن جاء بعده خلال دولتي الأيوبيين والمماليك.

يقول محمد فهمي عبد اللطيف في كتابه «السيد البدوي أو دولة الدراويش في مصر» كان التصوف قد وضح في الحياة الإسلامية كظاهرة اجتماعية، وأصبح المتصوفة قوة في المجتمع الإسلامي لها تأثيرها في اجتذاب النفوس، فاستغل الشيعة الباطنية هذه الناحية لمواجهة الخلافة العباسية، وذلك في دهاء وبراعة.[٢]

وقد أعد لهذه المهمة إعداداً خاصاً السيد أحمد البدوي، وتعاون من أجل ذلك مع عدد من رموز الصوفية الباطنية آنذاك كما سيأتي

---

(١) اعتمدت كثيراً في هذا المبحث على كتاب ((السيد البدوي: دراسة نقدية)) د. عبد الله صابر، سلسلة الغزو الفكري في المناهج الدراسية، القاهرة، ١٩٩١م، دار الطباعة والنشر الإسلامية.

(٢) السيد البدوي (أو دولة الدراويش في مصر): مطبعة الحرية، ١٩٤٨م.

تفصيله.

١ - فما حقيقة السيد البدوي؟!

يقول الشيخ مصطفى عبد الرزاق شيخ الأزهر: أنه رجع إلى مخطوطة مغربية ينكر صاحبها أن «أحمد البدوي» كان صوفياً، ويثبت أنه كان علوياً شيعياً يهدف إلى إرجاع الملك العبيدي «الفاطمي» الشيعي المغالي، وأن «علي البدوي» والد «أحمد البدوي» كان أحد العلويين الشيعة الإسماعيلية، وأنه نزح من المغرب إلى مكة، وكان أحمد البدوي وقتها لم يتجاوز السبع سنوات وكان ذلك عام (٦٠٣هـ) حيث عقد الشيعة مؤتمراً (في مكة) بحثوا فيه كيف يعملون على إعادة الدولة الإسلامية العلوية - أي شيعة باطنية.[(١)]

وكانت بلاد المغرب وقتها مسرحاً للنشاط الشيعي الباطني المتستر بالتصوف، والذي يحاول إعادة الدولة العبيدية، التي كانت تقوم على أساس المذهب الإسماعيلي الباطني المغالي.

وبعد اضطهاد الشيعة، بعد أن سقطت الدولة الفاطمية في المغرب خرجوا في هجرة جماعية متجهين إلى مكة متسترين بالحج، وذلك ليبحثوا عن خطة جديدة لتحقيق أهدافهم في العالم الإسلامي... وكانت دعوتهم الجديدة قد تسترت بستار التصوف

---

(١) مجلة السياسة الأسبوعية: عدد (٨٩، ٩٠، ٩٢)، ١٩٢٧م، مقالات تحت عنوان (المولدان الأحمدي والدسوقي).

والزهد، ولكنه كان تصوفاً شيعياً مغالياً، كتصوف البدوي وإبراهيم الدسوقي، كما كان بعضهم يتستر بستار الفلسفة كابن عربي ومن قبله الحلاج وغيرهما من القائلين بوحدة الوجود، وقد ساعد على نشر دعوتهم الضالة انشغال الخلافة العباسية بالحروب الصليبية وصدهم للغزو التتاري.(١)

ونقل الإمام حسن البنا رحمه الله رواية عن مجيء أسرة البدوي، قريبة من رواية الشيخ مصطفى عبد الرزاق.(٢)

ويؤكد الدكتور سعيد عاشور ذلك بقوله: «الحقيقة أنه قد ساد القرن السادس الهجري جو من الاضطهاد للشيعة بالمغرب، مما جعلهم يتسللون إلى المشرق، ومازال والد «أحمد البدوي» يتحين الفرصة للخلاص، حتى أتيحت له سنة (٦٠٣هـ) فتظاهر بالخروج للحج وفي نيته عدم العودة.(٣)

وفي وقت سابق على هجرة والد «أحمد البدوي» من المغرب إلى مكة كانت هجرة والد «أحمد الرفاعي» من المغرب إلى العراق، حيث سكن البطائح بقرية أم عبيدة، وأسس أحمد الرفاعي مدرسته من الذين نزحوا من المغرب، وارتدوا رداء التصوف ليخفوا أفكارهم

---

(١) السيد البدوي: د. عبد الله صابر، ص٦-٧.

(٢) انظر: مذكرات الدعوة والداعية: ص٤٠-٤١.

(٣) السيد البدوي شيخ وطريقة: ص٤٧، د. سعيد عاشور نقلاً عن: الجواهر السنية لعبد الصمد ص٧، والطبقات الكبرى للشعراني جـ١، ص١٨٣، طبعة سنة ١٩٥٤م.

وعقيدتهم الباطنية ومخططاتهم ضد دولة الخلافة العباسية، وقد أشار الذهبي في سير أعلام النبلاء إلى هذه الهجرة.[١]

ومن العراق انطلق أحد أتباع الرفاعي إلى مصر، وهو «أبو الفتح الواسطي» (جد إبراهيم الدسوقي) لنشر دعوتهم الباطنية بها، وقد كان ذلك في العهد الأيوبي، وبعد موت الواسطي جاء (البدوي) ليخلفه في دعوته تلك وقد توزع هؤلاء الدعاة في مصر، فكان «الدسوقي» بدسوق و«أبو الحسن الشاذلي» بالإسكندرية، و«أبو الفتح الواسطي» ما بين القاهرة وطنطا والإسكندرية، ولما مات الواسطي حل محله البدوي بطنطا. وجميعهم من فلول العبيديين الذين طردهم صلاح الدين الأيوبي من مصر، ثم حاولوا العودة تحت ستار التصوف والزهد.[٢]

وقد تعاون شيعة المشرق مع شيعة المغرب في التنسيق، فابن بشيش أوفد الشاذلي ليحل محل الواسطي في الإسكندرية، وقد تم التنسيق مع مدرسة أحمد الرفاعي بالعراق بزعامة «عز الدين الصياد» الذي أقام بالقاهرة سنة ٦٣٦-٦٣٧هـ ليرتب لحضور البدوي إلى «طنطا»، كما أن كلاً من ابن بشيش والبدوي قد تتلمذ على يد الشيخ بري تلميذ «أحمد الرفاعي» بالعراق. كما أن ابن بشيش وابن عربي قد

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٢٣.

(٢) السيد البدوي: د. عبد الله صابر، ص٨-٩، ص٢٨-٢٩.

تتلمذا على يد «أبي مدين» بالمغرب.[١]

٢- رحلات البدوي المريبة:[٢]

لقد رحل البدوي إلى العراق سنة (٦٣٤هـ) بصحبة أخيه الأكبر وكان العراق آنذاك مركزاً من مراكز التصوف الشيعي، حيث أتباع مدرسة أحمد الرفاعي المتوفى سنة (٥٧٠هـ).

وعلل البدوي لرحلته تلك قائلاً: «بينما أنا نائم بجوار الكعبة إذ أنا بهاتف يقول في المنام: «استيقظ من نومك يا همام ووحد الملك العلام... ولا تنم فمن طلب المعالي لا ينام، فوحق آبائك سيكون لك حال ومقام»[٣] ولعل في هذه الرؤيا مبالغة مقصودة لإعداد القارئ لتقبل المعجزات التي نسبت إلى السيد البدوي فيما بعد.

وخلال رحلته إلى العراق زار قبر الحسن بن المنصور الحلاج الذي أعدم عام (٣١٩هـ) بسبب عقائده الفاسدة، ثم زار بصحبة أخيه «الكاظمية» لزيارة قبور أئمة الشيعة هنالك.

«ويرى بعض الباحثين أن رحلة البدوي إلى العراق كانت بأمر العلويين الشيعة ليتم إعداده دعوياً على يد الصوفي الشيعي «ابن عرب» واسمه في طبقات الرفاعية «الشيخ بري»، وهو شقيق «أبي

---

(١) السيد البدوي: د. عبد الله صابر، ص٨-٩، ص٢٨-٢٩.

(٢) انظر: السيد البدوي - دراسة نقدية: د. عبد الله صابر، ص١١-١٥.

(٣) السيد أحمد البدوي: د. سعيد عاشور، ص٥٧.

الفتح الواسطي» حيث تعلم البدوي كيف يبدو مجنوناً زاهداً»[(١)].

وعاد البدوي إلى مكة ليصبح شخصاً مجذوباً قد يطوي أربعين يوماً لا يتناول الطعام ولا الشراب، وغالباً يكون شاخصاً ببصره إلى السماء وقد صارت عيناه تتوقدان كالجمر[(٢)].

وفي مكة عاوده الهاتف في المنام ثلاث مرات قائلاً: «يا أحمد سر إلى طنطا فإنك تقيم بها وتربي رجالاً وأبطالاً»[(٣)].

ويرى بعض الباحثين أن الشيعة هم الذين أرسلوا «البدوي» لنشر دعوتهم بمصر لإرجاع الملك الفاطمي الشيعي، بعد موت داعيتهم «أبو الفتح الواسطي» بالإسكندرية سنة ٦٣٥هـ. وقد رتبوا للأمر عدته[(٤)].

وفي طنطا سكن «البدوي» سطح دار (ركن الدين) وكانت قريبة من المسجد، وحرص على الصراخ من فوق السطح ليعلم الجميع بجذبته واتخذ زي المجاذيب، وظل ضارباً اللثامين على وجهه، وكان إذا لبس ثوباً أو عمامة لا يخلعها لغسل حتى تذوب، فيبدلونها له

---

(١) د. أحمد صبحي ص٩ (عن طبقات الرفاعية ص٢٦، ٤٧) في كتابه السيد البدوي بين الحقيقة والخرافة: ص٩٠.

(٢) الجواهر السنية في الكرامات الأحمدية: عبد الصمد زين الدين الأحمدي، نقلاً عن: السيد البدوي: د. عبد الله صابر، ص١٤.

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني: جـ١، ص١٨٤، ط الحلبي، ١٩٥٤م، د. سعيد عاشور، ص٨١.

(٤) انظر تفصيلاً لذلك: السيد البدوي: د. عبد الله صابر، ص١٥.

بغيرها، وإذا ما شعر بأنه سينكشف اتخذ الجذب له وسيلة للتمويه.

يروي الحافظ السخاوي، أن ابن حيان زار البدوي مع الأمير: ناصر الدين بن جنكلي يوم الجمعة، وكان الخطيب قد بدأ خطبته، عندها وضع الشيخ أحمد رأسه في طوقه بعد ما قام قائماً وكشف عن عورته بحضرة الناس وبال على ثيابه على حصر المسجد واستمر بعدها واضعاً رأسه في طوق ثيابه وهو جالس حتى انقضت الصلاة ولم يصل.(١)

وقد حاول أحد علماء المالكية استجلاء أمر البدوي فذهب مع جماعة من طلبته إلى طنطا، وهناك جلسوا بجوار الدار التي يعيش فوق سطحها السيد البدوي، حيث بدءوا ينتقدونه، وعندما سمعهم وهو فوق السطح أتى إلى طرف السطح وبال عليهم.(٢)

وهكذا اتخذ السيد البدوي الجذب والوله والسرية غير مفصح عن شيء من دعوته.

٣- دعوة السيد البدوي وخططاتها الخفية:

لقد مرت دعوة السيد البدوي بمرحلتين هما:(٣)

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: جـ٩، ص١٥٠، عن السيد البدوي السابق ص١٦.

(٢) السيد البدوي: سعيد عاشور، ص١٢٨.

(٣) انظر: السيد البدوي - دراسة نقدية: ص١٧-٢٠.

المرحلة الأولى: كانت في أخريات حكم الدولة الأيوبية، وتعتبر هذه المرحلة هي مرحلة انطلاق البدوي في دعوته، إذ بقي البدوي مقيماً على سطح منزل الشيخ ركن الدين «ركين» لمدة اثنتي عشرة سنة، كان يقوم خلالها بعملين متناقضين، الأول: يوجه إذاعة من الصياح والصراخ، ليقنع الناس بجذبته وجنونه وفي نفس الوقت يسير الدعاة والبعوث، ويحكم الخطط ويعاونه صديقه «عبدالعال» في التنفيذ، وكان البدوي يختار دعاته من المريدين المخلصين والقادرين على نشر دعوته بين الناس.

يقول عبد الوهاب الشعراني: «فلم يزل سيدي (أحمد) على السطح مدة اثنتي عشرة سنة، وكان سيدي (عبدالعال) يأتي إليه بالرجل أو الطفل، فيطأطئ رأسه من السطح، فينظر إليه نظرة واحدة فيملؤه مدداً، ويقول لعبد العال: «اذهب به إلى بلد كذا، أو موضع كذا، ليكون داعيته فيه».

وقد اكتمل عدد تلاميذه أربعين، وهم الذين يُسَمَّوْنَ بالسطوحية (نسبة إلى السطح الذين كان البدوي يسكن فيه) وقد تلقوا العهد على يده، وانتشروا في أنحاء الديار المصرية يبشرون بتعاليمه.

وقد أرسل دعاته إلى (نفيا) بمحافظة الغربية بمصر، وإلى (إمبابة) وإلى بلبيس، والقاهرة، وإلى الشام، واليمن والموصل وغيرها.

وكان هؤلاء المبعوثون يقيمون في البلد الذي أرسلوا إليه ولا يغادرونه حتى يموتوا.

المرحلة الثانية:[(١)] أيام حكم المماليك، وفي هذه المرحلة وُضع البدوي تحت المراقبة الشديدة، وخاصة أثناء حكم الظاهر بيبرس الذي واجه مؤامرة شيعية بزعامة (الكوراني) الصوفي الشيعي، وقد كان بيبرس خبيراً بالمؤامرات، مشهوداً له بالدهاء.

يقول الشيخ مصطفى عبد الرزاق: «إن البدوي سرعان ما أحس أنه محاط بالجواسيس، وأن الظاهر بيبرس قد وقف على نيته، فانقلب يعلم الناس النحو والصرف، وقرأ دروساً في الفقه، ولبث سنين لا يجتمع بأحد من السطوحيين في مجلس ظاهر»[(٢)].

وكانت دعوة البدوي قد استرعت انتباه الظاهر بيبرس فكلف قاضي القضاة «ابن دقيق العيد» ليتحقق من دعوة البدوي ويتأكد من ميوله السياسية.

كما أن (الظاهر بيبرس) نفسه سار متخفياً يستطلع أخبار البدوي وأتباعه في مصر (الإسكندرية والقاهرة) وسار كذلك إلى مكة بزيارة مفاجئة عندما علم من مصادره السرية أن مكة كانت النقطة الأساسية لدعوة البدوي وأشياعه[(٣)].

لقد تأثر البدوي في دعوته بما لدى الباطنية الإسماعيلية من نظريات وأفكار فنظرية القطب هي نفسها نظرية المهدي عند الشيعة،

---

(١) المرجع السابق: ص١٨-٢١.

(٢) مجلة السياسة الأسبوعية: عدد (٨٩)، ١٩٢٧م.

(٣) المقريزي: حوادث (٦٦٣-٦٦٤هـ).

ورفع التكاليف الشرعية عن الأولياء والأئمة واحدة، وكذلك مظاهر التقديس، وأنهم في مرتبة أعلى من مرتبة الأنبياء، والخ.

ومن الأدلة على وجود مخطط باطني يقف خلف البدوي:[١]

١- استخدام البدوي لأسلوب الدهاء والتخفي، وذلك في ظهوره في زي المجاذيب، واتخاذ التقية عندما يكشف... وتبوله في المسجد، مما جعل الناس لا يفكرون في دعوته ومراميها البعيدة. ولا ننسى الطريقة المريبة التي جاء فيها البدوي إلى (طنطا) والتزامه الصمت، وخاصة عند حضور الأغراب، وامتناعه عن مقابلة رجلين في وقت واحد.

٢- التنسيق بين (البدوي) ودعاة الشيعة في العالم، إذ كان التنسيق واضحاً قوياً بين شيعة المغرب، وشيعة المشرق وهذا التنظيم هو الذي أوفد «السيد البدوي» إلى مصر أخيراً.

وقد كانت خطط البدوي وأهدافه متسقة مع أهداف الدسوقي والشاذلي وابن عربي.

كما أنهم كانوا يتشابهون في انحرافاتهم العقدية، وفي أذكارهم المملوءة بالكلمات الغامضة المريبة.

٣- استخدام الشيفرة في مراسلاتهم، والادعاء بأنها لغة سريانية.

٤- ادعاؤهم النسب النبوي: العبيديون ادّعو نسبتهم إلى فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وأساطين التصوف، كلهم أوصلوا نسبهم إلى

---

(١) انظر: السيد البدوي - دراسة نقدية: ص٢٦-٣١.

آل البيت النبوي.

فالفرقة الإسماعيلية أسسها «ميمون بن قداح الديصاني» في السلمية بالشام، وقد ادّعى أنه من أهل البيت النبوي، رغم أنه من أصل يهودي. وابنه (عبيد الله) الذي تنسب إليه الدولة الفاطمية، قال ابن كثير: إنه كان يهودياً ادّعى أنه شريف علوي فاطمي، وأن الحكام الفاطميين كانوا من أنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة.[1]

وقال السيوطي في تاريخ الخلفاء: مؤسس الدولة العبيدية يهودي.

وإذا عرفنا أن عبد الله بن سبأ رأس الشيعة الغالية «الذين ألهوا علي بن أبي طالب وتظاهروا بالولاء لأهل البيت «كان يهودياً، أدركنا خطورة التحركات الخفية للحركات الباطنية، وهي تتلون وترفع واجهات مختلفة، باسم التشيع لآل البيت حيناً، أو التصوف والدروشة حيناً آخر، وتاريخها يكشف لنا الخبايا والخفايا، يطلعنا كل يوم على جديد.

❊❊❊

---

(١) البداية والنهاية: لابن كثير، جـ١٢، ص٢٦٧، ط. دار الفكر، بيروت.

المبحث الرابع
غلاة الصوفية وقولهم بوحدة الوجود

هذه مرحلة تعتبر أخطر مراحل الضلال التي توصل إليها هؤلاء الغلاة من فلاسفة التصوف.

«فقد زعم بعض الصوفية أن الواحد منهم قد يصل إلى مرحلة ينكشف له فيها أن الحق هو الخلق والخلق هو الحق، ولا فرق بينهما مطلقاً..

وقال آخرون: بمثل كلام الحلولية الذين يرون أن الذات الإلهية تحل أو تتحد ببدن الإنسان، أو روحه حيناً، وتفارقه حيناً آخر»[(١)].

«وهذه هي عقيدة الفناء، ووحدة الوجود، وذلك بأن تحدث لهم حال يرون الله فيها بكل مصنوعاته ومخلوقاته - حسب زعمهم - فيصبح الله هو المعبود والعابد في آن واحد... فالكون عندهم عبارة عن مرايا أسماء الله وصفاته... والعارف عندهم هو من فنيت ذاته وصفاته في ذاته تعالى وصفاته فلم يبق له اسم ولا رسم»[(٢)].

لقد تسربت هذه الضلالات إلى المتصوفة من مصادر فلسفية

---

(١) موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية: د. أحمد البناني، ص١٧١.

(٢) النقشبندية - عرض وتحليل: عبد الرحمن دمشقية، ص٥٥-٥٨.

ودينية مختلفة.[1]

فيرى بعض الباحثين: أن موضوع وحدة الوجود في الفلسفة الأفلاطونية قد جذب أنظار الصوفية أكثر من أي شيء آخر، لأن الذين يؤمنون بهذه العقيدة يرون أن العالم كله مرآة لقدرة الحق تعالى وكل موجود بمثابة مرآة تتجلى ذات الله فيها، إلا أن المرايا كلها ظاهرة، والموجود المطلق والموجود الحقيقي هو الله.. وعلى السالك أن يطير بجناح العشق نحو الله تعالى، ويجرد نفسه من قيد وجوده الذي ما هو إلا مظهر فحسب، وينمحي ويفنى في ذات الله، أي الموجود الحقيقي».[2]

ويرى آخرون: أن هذه العقيدة الكفرية، مأخوذة ومقتبسة بتمامها من الديانات الهندية «فقد اختاروا نفس المناهج التي وضعها أصحاب الديانات الهندية للحصول على المعرفة «نروان» وجعلوا تعذيب النفس «غورديسا» والصمت والتفكير والذكر وسيلة للوصول إليها».[3]

فأبو يزيد البسطامي كان من أهل خراسان، وكان جده زرادشتياً وكان شيخه في التصوف كردياً، ويقال: إنه أخذ عقيدة الفناء الصوفي عن أبي علي السندي الذي علمه الطريقة الهندية التي يسمونها مراقبة

---

(١) انظر: التصوف المنشأ والمصادر: ص١٢١-١٣٥، وص٢٢٣-٢٣٠.

(٢) تاريخ التصوف الإسلامي: د. قاسم غني، ترجمة صادق نشأة، ص١٤٢، ١٤٣، نقلاً عن التصوف المنشأ والمصادر: ص١١٤-١١٥.

(٣) التصوف المنشأ والمصادر: ص١١٤-١١٥.

الأنفاس، والتي وصفها هو بأنها عبادة العارف بالله.

وإننا نلمح نزعة أبي يزيد إلى وحدة الوجود ماثلة في الأقوال المعزوة إليه كقوله: سبحاني ما أعظم شأني، للخلق أحوال، ولا حال للعارف، لأنه محيت رسومه، وفنيت هويته بهوية غيره». [(١)]

ويقال: إنه صلى بالناس الفجر والتفت بعد ذلك وقال: «إني أنا الله، لا إله إلا أنا فاعبدوني، فتركه الناس، وقالوا: مجنون مسكين». [(٢)]

فالديانة البوذية كانت قد انتشرت في الشرق، في بلخ وبخارى وفيها وراء النهر قبل الإسلام بأكثر من ألف سنة... وكان صوفية خراسان يعدون في الرعيل الأول من الصوفية في الشجاعة الفكرية والحرية الشخصية، والعقيدة المعروفة بالفناء في الله، المقتبسة من الأفكار الهندية إلى حد ما، والتي انتشرت على الأكثر بواسطة صوفية خراسان كأبي يزيد البسطامي وغيره». [(٣)]

وعندما بدأ المسلمون في ترجمة كتب الشعوب الأخرى، ترجم مقدار من آثار البوذية الهندية، إضافة إلى **عقائد النصارى المحرفة**، ثم جاءت **عقيدة الرافضة** لتشق طريقها نحو غلاة المتصوفة.

قال فخر الدين الرازي عن فرق الصوفية: «ومنها الحلولية..

---

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه: ترجمة الدكتور أبو العلاء عفيفي، ص٧٥.

(٢) تلبيس إبليس: لابن الجوزي، ص٣٤٥، ط دار الوعي ودار القلم، بيروت.

(٣) تاريخ التصوف في الإسلام: د. قاسم غني، ترجمة صادق نشأت، ص٢٢١-٢٢٢، طبعة مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

وأول من أظهر هذه المقالة في الإسلام الروافض، فإنهم ادّعوا الحلول في حق أئمتهم».(١)

ويقول الشيخ عبد القادر البغدادي عن هؤلاء مؤكداً: «الحلولية في الجملة عشر فرق، كلها كانت في دولة الإسلام، وغرض جميعها: إلى فساد القول بتوحيد الصانع، وتفصيل فرق، في الأكثر يرجع إلى غلاة الروافض».(٢)

وهذه فكرة تسربت إليهم من اليهود والنصارى القائلين نحن أبناء الله وأحباؤه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧]، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة:١٨].

فوحدة الوجود كفر محض لاشك في ذلك. يقول ابن تيمية رحمه

---

(١) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: ص٧٢-٧٤، عن التصوف في ميزان البحث والتحقيق: عبد القادر السندي، ص١٢.

(٢) الفرق بين الفرق: ص٢٥٤.

الله: «وأما أن يكون الخلق جزءاً من الخالق تعالى، فهذا كفر صريح يقوله أعداء الله النصارى، ومن غلا من الرافضة، وجهال المتصوفة، ومن اعتقده فهو كافر... فالرب رب، والعبد عبد ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، وليس أحد من أهل المعرفة بالله يعتقد حلول الرب تعالى به، أو بغيره من المخلوقات، ولا اتحاده به».[1]

ومن كبار القائلين بوحدة الوجود:

الحلاج وابن عربي والسيد البدوي وابن الفارض. وغيرهم كثير.[2]

* فالحلاج: الحسين بن منصور المتوفى عام (٣٠٩هـ) كان جده مجوسياً عرف عند الفقهاء وبعض المتصوفة أنه زنديق، وممن يتعاطى السحر والشعوذة، فقُتِلَ بالعراق.[3]

وقد أثر عنه من الشعر ما يصرح فيه بالكفر كقوله:

---

(١) الفتاوى: ابن تيمية، جـ١١، ص٧٤.

(٢) انظر: التصوف في ميزان البحث والتحقيق: عبد القادر السندي، فقد ترجم لسبعة عشر رجلاً من هؤلاء ((الفصل الرابع)).

(٣) انظر ترجمته في المرجع السابق: ص٦٤٣-٧١٦. والبداية والنهاية: ١١/ ١٣٢-١٣٤، مطبعة دار الفكر، بيروت.

سبحان من أظهر ناسوته سرُّ سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهراً في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب

فالحلاج من أكبر دعاة الحلول وامتزاج الخالق بمخلوقه، تعالى الله عما يقوله هذا الزنديق علواً كبيراً. ويقول أيضاً:

مزجت روحك في روحي كما تمزج الخمرة في الماء الزلال
فإذا مسَّك شيء مسَّني فإذا أنت أنا في كل حال[1]

وقد حاول بعضهم أن يبرر للحلاج أقواله، إلا أنها تأويلات فاسدة غير مقبولة، وإلا كيف يؤول قوله التالي؟!:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

بغير الكفر والحلولية؟!

قال ابن تيمية رحمه الله: «الحلاج قُتِلَ على الزندقة التي ثبتت عليه بإقراره، وبغير إقراره، والأمر الذي ثبت عليه مما يوجب قتله باتفاق المسلمين، ومن قال: إنه قُتِلَ بغير حق، فهو إما منافق ملحد، وإما

(١) انظر البداية والنهاية: ١١/ ١٣٣. وأخبار الحلاج: ص٦٠ مع كتابه الطواسي، طبعة مكتبة الجندي بمصر، ١٩٧٠م، عبد الحفيظ محمد هاشم.

جاهل ضال».[١]

ويُروى أنه قُتِلَ بعد أن ادّعى النبوة حيناً، والألوهية حيناً آخر، وأقرّ بكتاب منسوب إليه «من الرحمن الرحيم إلى فلان بن فلان» يدعوه إلى الضلالة والإيمان به، وذلك في بغداد.

وقالوا له: كنت تدّعي النبوة فصرت تدّعي الألوهية والربوبية؟ فقال: «لا، ولكن هذا عين الجمع عندنا. هل الكاتب إلا الله وأنا واليد آلة».[٢]

هذا نموذج مما نسب إلى الحلاج، وفي سيرته غرائب وعجائب، ورغم ذلك يُتّخذ هذا الزنديق رمزاً لحرية الفكر، فتكتب فيه القصائد، وتؤلف القصص عند زنادقة العصر الحاضر باسم الأدب.

* وعحيي الدين بن عربي: المتوفى سنة (٦٣٨هـ) كان من أصحاب هذه الضلالات، وممن يعتقد بالوحدة بين الخالق والمخلوقات.

يقول ابن عربي: «إن الوجود الحقيقي هو الله سبحانه، ولكنا نرى هذه الكثرة والتعدد قائمة أمام أعيننا، فلا يمكن إنكارها، ومن ثم فهذه الموجودات كلها ليست سوى الله ذاته - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - وكلها مظهر من مظاهره، وتجل من تجلياته،

---

(١) جامع الرسائل: ابن تيمية، ص١٨٧، طبعة محمد علي صبيح: الرسالة الثالثة.

(٢) البداية والنهاية: ص١٣٨، الجزء الحادي عشر.

وليست آية من آياته، كما هو مفهوم أهل السنة»[(١)].

وها هو يترجم عقيدته شعراً فيقول:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان بكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أن توجهت ... ركائبه فالحب ديني وإيماني

فدير الرهبان وبيوت الأوثان، وكعبة الطائفين وألواح التوراة والقرآن، كلها واحد عند ابن عربي، والحب دينه وإيمانه.

وهكذا «فكل كائن هو الله والله هو كل كائن... فاتّخذ بذلك الوجود مع الخالق المعبود.. وهذا أشد شركاً من قول اليهود والنصارى».

«وكان كلام الفلاسفة إرهاصاً أدى بابن عربي إلى القول بوحدة الوجود، وإن كان مذهبُهُ أكثر شرًّا من مذهب الفلاسفة، وخاصة أنه حرّف آيات القرآن لتنسجم مع نظريته الباطلة، وأن كثيراً من المسلمين المغفلين من يعظّمه ويسميه الشيخ الأكبر»[(٢)].

وقال ابن تيمية[(٣)]: «ورأيت بخطه في كتابه «الفتوحات المكية» هذين البيتين:

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية، ٥/ ٨٢.

(٢) الصوفية: محمد العبدة، ص٤٥.

(٣) الفتاوى: ابن تيمية، جـ١، ص٢٤٢.

الربّ حق والعبد حق   يا ليت شعري من المكلف
إن قلت عبد، فذاك رب   أو قلت رب أنى يكلف؟

ويرى ابن تيمية أن ابن عربي وأمثاله تأتيهم أرواح تخاطبهم وتتمثل لهم، وهي جن وشياطين فيظنونها ملائكة...

وهذه الأرواح الشيطانية هي الروح الذي يزعم صاحب «الفتوحات» أنه ألقى إليه ذلك الكتاب...

ولما كانت أحوال هؤلاء شيطانية، كانوا مناقضين للرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم، كما في كلام صاحب الفتوحات المكية: و«الفصوص» وأشباه ذلك مدح للكفار مثل قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم، وتنقص للأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى، وكان يذم شيوخ المسلمين المحمودين»[1].

والغريب أن كثيراً من المتصوفة والملاحدة يرون ما يراه ابن عربي فيزعمون «ما كان يزعمه التلمساني منهم لما قُرئ عليه «الفصوص» وقيل له: القرآن يخالف فصوصكم أجاب: القرآن كله شرك وإنما التوحيد كلامنا. فقيل له: فإذا كان الوجود واحداً فلم كانت الزوجة حلالاً والأخت حراماً؟ قال: الكل عندنا حلال هؤلاء المحجوبين قالوا: حرام، فقلنا حرام عليكم»[2].

---

(١) المرجع السابق: جـ١١، ص٢٣٩.

(٢) المرجع السابق: جـ١١، ص٢٤١.

وما يزال كثير من متصوفة القرن الأخير يعكفون على دراسة كتب ابن عربي وغيره من غلاة المتصوفة، فالأمير عبد القادر الجزائري مثلاً كان يعكف في بيته - بدمشق - على مطالعة الفتوحات للشيخ الأكبر ويحاور في مسائلها مع جلة علماء دمشق.[(١)]

* وكان عمر بن الفارض المتوفى سنة (٦٣٢هـ) من القائلين بالاتحاد والحلول. وذلك في قصائده المشهورة في ديوان شعره، ومن أشهر قصائده التي صرح فيها بمذهبه هذا قصيدته (التائية) الكبرى والمسماة «نظم السلوك» يقول فيها[(٢)]:

لها صلاتي بالمقام أقيمها ... وأشهد فيها أنها لي صلت
كلانا مصل عابد ساجد إلى ... حقيقة الجمع في كلّ سجدة
وما كان لي صلى سواي ولم تكن ... صلاتي لغيري في أداء كل ركعة

إلى أن يقول:

وما عقد الزنار حكماً سوى يدي وإن حل بالإقرار فهي حلت.

وإن خر للأحجار في البدّ عاكف فلا وجه للإنكار بالعصبية.

وإن عبد النار وما انطفت فما قصدوا غيري لأنوار عزتي.

---

(١) الرحلة الحجازية: ٣/ ٢٠٠، محمد لبيب البتنوني، مطبعة المعارف، جـ٣، نقلاً عن: الأحوال الدينية عند المسلمين: علي بن بخيت الزهراني، ص٢٣٧.

(٢) الديوان: ص٣٤ وما بعدها.

فهل هنالك تصريح بالكفر أشد مما قل في هذا الشعر؟!

فصلاته لنفسه لأنها هي الله (والعياذ بالله) «وصلوات اليهود وعقد زنار النصارى، وبد الوثنية الهندية، ومساجد الله، كلها عند هؤلاء ساح فساح، يعبد فيها الله».[١]

قال الإمام الذهبي في ميزان الاعتدال:[٢] «إنه ينعق بالاتحاد الصريح في شعره» وقال في تاريخ الإسلام «كان سيد شعراء عصره وشيخ الاتحادية».

«والحقيقة أن هذه المعاني السابقة شرك واضح وزندقة وإلحاد، ولا يجوز تأويلها إلى غير هذه المعاني القبيحة التي نطق بها ابن الفارض».[٣]

وفي عقيدة الحلولية هؤلاء قال ابن تيمية: «وأما ما جاء به هؤلاء من الاتحاد العام، فما علمت أحداً سبقهم إليه إلا من أنكروا وجود الصانع، مثل فرعون والقرامطة، وذلك أن حقيقة أمرهم أنهم يرون أن عين وجود الحق هو عين وجود الخلق، وأن وجود ذات الله خالق السماوات والأرض هو نفس وجود المخلوقات».[٤]

* ومن هنا فقد تولد عن هذه العقيدة - وحدة الوجود - فكرة

---

(١) هذه هي الصوفية: عبد الرحمن الوكيل، ص٩٨، ط دار الكتب العلمية.

(٢) ميزان الاعتدال: الجزء الثالث، رقم الترجمة (٦١٧٣).

(٣) التصوف في ميزان البحث والتحقيق: عبد القادر السندي، ص٦٠٠.

(٤) مجموعة الرسائل: جـ١، ص١٧٢.

خبيثة أخرى، وهي أن المتصوفة قد عشقوا الصور الجميلة لاعتقادهم أنها مظاهر الحق، فصار تصوف وحدة الوجود، دعوة إلى خلاعة ماجنة، وإلى حب الشهوات الرذيلة، حيث جعلوا العشق الطبيعي سلماً للحب الإلهي، وحاكوا في كتبهم الحكايات الغزلية، والأساطير العشقية، وجعلوا مجنون ليلى قدوة لهم في حبهم لله تعالى.

ومن هنا جاء تصريح ابن العربي في (فصوصه) بأن «من أحب النساء على هذا الحد فهو حب إلهي»[(١)].

❊❊❊

(١) فصوص الحكم: ابن عربي، ص٢١٨. وسوف نفصل في موضوع الحب الإلهي في الفصل الثالث من هذا الباب.

المبحث الخامس

تقديس القبور والأضرحة والاستغاثة بأصحابها

لقد ضخّم الصوفيون دور مشايخهم، وقدّسوهم أحياء وأمواتاً وتجاوزوا معنى أن الله قريب يجيب دعوة الداعي، وليس هناك حاجة إلى الوسطاء بينه وبين عباده.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

وقد غلا المتصوفة في مشايخهم، كما غلا الرافضة في أئمتهم.

يقول الغالية في مشايخهم: «إن الولي محفوظ، والنبي معصوم... وأن الشيخ والولي «لا يخطئ ولا يذنب» «وقد بلغ الغلو بالطائفتين» الرافضة وأشباههم من الغالية في بعض المشايخ «أن الرافضة تزعم بأن الأئمة الإثني عشر معصومون من الخطأ والذنب وأن منهم من هو بمنزلة النبي وأفضل منه، وإن زاد الأمر جعلوا له نوعاً من الإلهية، وكل هذا من الضلالات الجاهلية المضاهية لضلالات النصرانية. قال ﷺ: **«لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»**.(١)

وقد تحول الأمر عند المتصوفة إلى أن يستغيثوا بالمشايخ أحياءً

---

(١) الفتاوى: ابن تيمية، جـ١١، ص٦٧-٦٨.

وأمواتاً ولهم في ذلك قصص غريبة، وأساطير مختلفة، تصلح أن تكون مجالاً لخيال قصصي خصب.

«يروى أن أحد مريدي الشيخ «محمد المعصوم» كان راكباً على فرس فجفلت به فسقط على الأرض، وبقيت رجله معلقة في الركاب، وجعلت الفرس تعدو به حتى أيقن بالهلاك، فاستغاث بحضرة القيوم «أي الشيخ المعصوم» قال: «فرأيته حضر وأوقفها وأركبني» «وكذلك وقع نفس المريد في البحر، وما كان يعرف السباحة، وكاد أن يغرق، فناداه مستغيثاً به، فحضر وأخذ بيده وأنقذه»[١].

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل لا فرق عند المتصوفة بين الاستغاثة بالشيخ حياً، وبين الاستغاثة به بعد موته.

ومن أساطيرهم في ذلك: أن امرأة مات لها صغير فجاءت إلى السيد البدوي وهي باكية، وقالت يا سيدي ما أعرف ولدي إلا منك، وكانت تقول: توسلت إليك بالله ورسوله، فمد أحمد البدوي يده إليه ودعا له، وأحياه الله. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً[٢].

وقد زعم الخليفة الحالي للسيد البدوي في مولد عام ١٩٩١م:

«أن السيد البدوي موجود معك أينما كنت، ولو استعنت به في شدتك وقلت: يا بدوي مدد، لأعانك وأغاثك».

قال ذلك في الجموع المحتشدة بسرادق وزارة الأوقاف في

---

(١) جامع كرامات الأولياء: جـ١، ص٩٩-٢٠٠. المواهب السرمدية: ص٢١٠-٢١٣.

(٢) عجائب الآثار: الجبرتي، جـ٣، ص١٤١.

القاهرة أمام العلماء والوزراء، وقد تناقلته الإذاعات وشاشات التلفاز.[(١)]

وقد انتقل التقديس والتعظيم إلى قبور هؤلاء المشايخ وأضرحتهم الفارهة، والتوسل بها في هالات وضجيج واعتقاد باطل، بأن أصحابها ينفعون أو يضرون.

* الأضرحة تهيمن على حياة الناس:[(٢)]

اهتم الصوفيون بقبور مشايخهم وأضرحتهم المشيدة، وصاروا يتوسلون لديها، ويمرغون الوجوه بالأعتاب والتراب، وقد يصل الحال بهم إلى الطواف حول القبر، وهذا ما يشاهد حول قبر السيدة زينب بنت الحسن أو الحسين بن علي رضي الله عنهما سبع مرات تشبهاً بالطواف حول الكعبة، وهذا ما يحصل الآن حول ضريح سيدهم البدوي، أو حول قبر الإمام الشافعي رحمه الله، وبكل هؤلاء سدنة وطقوس وأوقاف وأموال تبذل، ناهيك عن الاختلاط وصرف العبادة إلى غير الله، وأكثرهم يسأل الميت المقبور بقوله: يا سيدي فلان اغفر لي وارحمني.

وقد يقول أحدهم: «مدد يا سيدنا الحسين، مدد يا سيدة زينب مدد يا بدوي يا شيخ العرب، مدد يا رسول الله، مدد يا أولياء الله..

---

(١) السيد البدوي - دراسة نقدية: د. عبد الله صابر، ص٥٤.

(٢) انظر: الأحوال الدينية عند المسلمين: علي بن بخيت الزهراني، ص١٧١-٢١٨.

وهذا شرك أكبر يخرج قائله من ملة الإسلام والعياذ بالله»[١].

لقد انتشرت القبور والقباب والأضرحة انتشاراً عجيباً، وأنفق على قبابها ومبانيها وزخرفتها الأموال الطائلة.. إضافة إلى ما ينسبونه إلى قبور الأنبياء والصحابة مما لم يصح منه شيء.

وعندما حل الحكم العثماني في بلاد المسلمين، ازداد التعلق بالقبور والأضرحة «حيث أن الموجود في القاهرة (في بداية القرن الرابع عشر الهجري) وحدها كان يبلغ مائتين وأربعة وتسعين ضريحاً، وفي الأستانة عاصمة السلطنة كان يوجد أربعمائة وواحد وثمانون جامعاً، لا يكاد يخلو جامع فيها من ضريح، وتنافس الملوك والأمراء على تشييدها وتعلق الناس بها.

ووصل الأمر أحياناً أن يُبنى على قبر صعلوك (كان قاطع طريق) جامع وقبة، كما صنع الخديوي إسماعيل سنة (١٢٨٠هـ) برجل يدعى (صالح أبو حديد) كان قاطع طريق، فصار يعمل له حضرة كل أسبوع ومولد كل عام[٢].

وهنالك رجل مجذوب «علي البكري» كان يطوف عرياناً، فلما مات، أقام أخوه له ضريحاً، بأن عمد إلى أحد مساجد القاهرة واجتزأ

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة: جـ٢، ص١٩٣. وانظر كتابنا: الحياة الدينية عند العرب: الباب الخامس، فصل ((ألوان من الشرك في حياة المسلمين المعاصرة)).

(٢) الخطط التوفيقية: علي باشا مبارك، جـ٣، ص٣٣٨.

نصفه، وصار الناس يَرِدُونَ إليه من كل أنحاء القطر.[١]

وكان لهذه الأضرحة ألوف من السدنة يعيشون في رغد وثراء من ورائها، وكانوا يتوارثون هذه الوظائف ويزعمون أنها لا تنتزع منهم إلا من قبل ظالم.

ويكفي أن تعلم أن ما كان يصل إلى ضريح الجيلاني في السنة من أموال الزائرين، يفوق ما كانت تنفقه الدولة العثمانية على الحرمين الشريفين في السنة الواحدة أضعافاً مضاعفة.[٢]

وضريح البدوي في مسجده حيث يقام داخله جماعتان لكل صلاة، ولكل جماعة إمام إحداهما جماعة الضريح وتقام داخل ضريح البدوي، والثانية جماعة عامة تقام خارج الضريح بنفس الوقت، وفي داخل القبر نجد من يطوف ويتمسح بالضريح، كما تجد مظاهر التوسل المختلفة بالبدوي، ومناجاته ومطالبته بتفريج الكرب وقضاء الحوائج، ونرى رفع الأكف في الدعاء مع خشوع وبكاء أحياناً، وتقبيل المقصورة والأعتاب ووضع النقود والمصاغ داخل صندوق النذور.. أملاً في تفريج الكروب كالشفاء من المرض أو النجاح في الامتحان، وغير ذلك مما لا يُقصد به وجه الله..

وقد لا يكتمل الحج عند الصوفي إلا بزيارة ضريح السيد

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار: عبد الرحمن الجبرتي، جـ٢، ص١٥٥، دار الفارس، بيروت.

(٢) الرحلة الحجازية: محمد لبيب التبنوني، جـ٢، ص٢١٩.

البدوي.[١]

يقول السخاوي: «جاء الحجاج هذه السنة لسيدي أحمد البدوي من الشام وحلب ومكة، أكثر من حجاج الحرمين».[٢]

وهذا ما يشجعه أعداء الإسلام. جاء في دائرة المعارف الإسلامية (التي يصدرها المستشرقون) عن السيد البدوي: «بأنه أكبر أولياء مصر ومفرج كل الكروب منذ عهد طويل».[٣]

ومثل هذا الانحراف يجري حول قبر محيي الدين بن عربي في دمشق، وحول قبر السيدة زينب في دمشق أيضاً وفي مصر...

وبذلك «انصرف الناس إلى خدمة الأموات بإعمار أضرحتهم وبناء القباب عليها، وصرفوا الأموال والجهود، على حساب تربية الأحياء وتقوية الأمة على أعباء الجهاد».[٤]

وصارت حياة الناس مرتبطة بها أشد الارتباط، يلجؤون إليها في الشدائد ويلتمسون فيها أسباب النصر، يطلبون منها الرزق والولد، ويفر إليها العصاة والمجرمون يلجؤون إليها.

وقد كان الحكام والقادة يبذلون أموالهم في ذبح القرابين لتلك الأضرحة. وعند مغادرة الفرنسيين للقاهرة (١٢١٦هـ) هرع قائد

---

(١) انظر: كتاب السيد البدوي: د. عبد الله صابر، ص٤٦-٤٧.

(٢) المسبوك في نيل السلوك: ص١٧٦، نقلاً عن المرجع السابق.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: جـ١، ص٤٦٨.

(٤) الأحوال الدينية عند المسلمين: علي بن بخيت الزهراني، ص٢٠٠ وما بعدها.

الجيش العثماني - حسين باشا القبطان إلى زيارة المشهد الحسيني، وذبح فيه خمس جواميس، وسبعة أكباش واقتسمتها خدمة الضريح»(١).

يقول الإمام الشوكاني رحمه الله: «ومن المفاسد البالغة إلى حد يرمي بصاحبه وراء حائط الإسلام ويلقيه على أم رأسه من أعلى مكان، أن كثيراً منهم يأتي بأحسن - ما يملكه من الأنعام - وأجود ما يحوزه من المواشي فينحره عند ذلك القبر، متقرباً به إليه، ويهل بها لغير الله، ويتعبد به لوثن من الأوثان، إذ لا فرق بين النحائر لأحجار منصوبة يسمونها وثناً، وبين قبر لميت يسمونه قبراً؟

وهذه من المحرمات القطعية. قال ﷺ:

«لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا»(٢).

وقال ﷺ: **«لعن الله زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج»**(٣).

* هذا أبرز ما تيسر لي جمعه، حول الانحرافات العقدية عند أهل التصوف، وفيها من خلل التصور، ومجانبة صفاء هذا الدين، ما يؤسف له أشد الأسف، وقد تركت هذه الانحرافات العقدية

---

(١) عجائب الآثار: الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، جـ٢، ص٤٧٩.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه الترمذي (كتاب الجنائز) برقم (٣٢٠) وحسنه.

انحرافات سلوكية عند قطاع كبير من المسلمين، ما تزال تفتك في كيان هذه الأمة حتى الآن، وذلك مجال حديثنا في الفصل القادم.



الفصل الثالث
الآثار السلبية لظاهرة التصوف

١ - نظرة المتصوفة إلى الحياة.

المبالغة في التقشف ومدح العزلة وترك الزواج.

٢ - تعدد الطرق وانتشار الزوايا والأربطة.

٣ - الوجد والسماع.

٤ - التواكل والبطالة.

٥ - المتصوفة والجهاد في سبيل الله.

٦ - أسلوب التربية عند المتصوفة.

الآثار السلبية لظاهرة التصوف

تمهيد: نفوذ المتصوفة في العالم الإسلامي.[١]

لقد سيطر الفكر الصوفي في القرون الأخيرة على العالم الإسلامي حتى أن بعض الباحثين أطلق على هذا النفوذ في مصر خلال العصر العثماني «دولة الفقراء» وقد كانت أعظم نفوذاً من سلطان بني عثمان.

«وذلك لأن روح العصر لما كان يسوده من ظلام الجهل، وشدة الفقر، واضطراب الأمن وظلم الحكام، عاون على ثبات هذه الدولة، وعلى رسوخ قدمها وشيوع تعاليمها بين الناس»[٢] ولا غرابة في ذلك، حيث أن هؤلاء المتصوفة قد سيطروا على الدولة العثمانية نفسها، وتمكنوا من نشر مذاهبهم.

ويذكر محمد بن علي السنوسي، أن السلطان عبد الحميد كان قد قرّب إليه ثلاثة من كبار المتصوفة في ذلك العصر، وهم: الشيخ محمد ظافر المدني، والشيخ أحمد أسعد المدني، والشيخ أبو الهدى الصيادي، وكان لهؤلاء مقام سام في السلطنة العثمانية، فالصيادي مثلاً كانت له الكلمة النافذة في تنصيب القضاء والمفتين، واستطاع أن ينشر الطريقة

---

(١) انظر: الأحوال الدينية عند المسلمين: علي بن بخيت الزهراني، ص٢٧٥-٢٧٩.

(٢) التصوف في مصر إبان العصر العثماني: د. توفيق الطويل، ص١٠٩، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٣٦٥هـ.

الرفاعية وأن يبني من مال الدولة كثيراً من التكايا والزوايا والأضرحة..

هذا النفوذ كان رغم حنكة السلطان عبد الحميد ودهائه، لأن روح العصر كانت خاضعة للفكر الصوفي.. والأولياء كانوا في عرف الناس فوق الدين والعرف، وهم في عرف الكثيرين قد سقطت عنهم التكاليف الشرعية.

وكان الحكام يعفون الأولياء والمتصوفة من الضرائب في كثير من الأحيان، ويرون أن أخذها منهم من الكبائر»[(١)].

لقد طغت الصوفية على العالم الإسلامي، وجعلته ينام في سبات عميق، وتخدره إلى حد لا يفيق منه، فانشغل المسلمون بالأضرحة والقبور، والشفاعة عندها، ولازموا الزوايا والتكايا وردوا أوراد المشايخ عاطلين عن العمل وحتى العلم الشرعي، وغسل المشايخ أدمغة أتباعهم فصدقوا كل مستحيل، وآمنوا بما يقول الشيخ العتيد، فكانت تربيتهم للأتباع تربية ذليلة في الغالب، وقد يخرج المجاذيب إلى الشوارع يدعون على الكافر المارق ذي المدافع والدبابات.

«وفي مصر انتشر الأولياء وفشا أمرهم، واقتسموا مناطق النفوذ فيها، وأصبح كل قسم منطقة نفوذ لولي منهم، يتصرف في أهلها ويستغل غلاتها، ويقيم الولائم في بيوت يخفون إليهم سراعاً، يحملهم

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار: جـ٣، ص٣١٩، الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، دار الفارس، بيروت.

على ذلك الأمل في اكتساب البركة، والظفر بالزلفى إلى الله.[١]

إن هذا السبات العميق، والجهل الشديد، كان نتيجة طبيعية للآثار السلبية التي تركها المتصوفة تنخر في جسم الأمة، إضافة إلى فكر الإرجاء، وأمراض أخرى كثيرة، وسوف نلقي نظرة على هذه الآثار..

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني: ص١٢٠.

١ - نظرة المتصوفة إلى الحياة:

* المبالغة في التقشف ومدح الفقر والعزلة:

كان أوائل الصوفية أصحاب مجاهدات وعبادات، صادقين مع أنفسهم، وإن كانت بعض أعمالهم فيها تعمق وتشدد، ومخالفة للسنة.. ثم ظهرت أجيال بنوا التكايا والزوايا مستريحين من كد المعاش، وساح بعضهم في البراري والقفار وارتاحوا إلى الخلوة والعزلة، وذموا الزواج، ومجدوا العري والجوع متأثرين بمصطلحات وافدة غريبة.

«فقد زعم كثير من الصوفية أن الفقر أمر محمود لذاته، وإنه مقام شريف من مقامات الوصول إلى الولاية»[1].

لكن الزهد بعد ذلك أخذ صوراً متفاوتة في البعد والقرب عن المنهج الإسلامي.

فمن أقوالهم الحسنة في ذلك: «الزهد عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف» وقولهم «الزهد خلو القلب مما خلت منه اليد»[2].

إلا أن التطرف صار من لوازم التصوف، فتكاد لا تجد صوفياً لا يبالغ في الجوع والتعري وترك الحلال، وتجده يفرط في التقشف وتعذيب النفس، وجلب الأذى، والتجاوز في أوامر الله أو نواهيه»[3].

---

(١) الرسالة القشيرية: ص٢٠٩، ص٩٤.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) دراسات في التصوف: إحسان إلهي ظهير، ص١٥.

وينسى هؤلاء قوله ﷺ: «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم»[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «كنا عند عمر، فقال: نهينا عن التكلف»[٢].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «الاقتصاد في السنة أحسن من الاجتهاد في البدعة»[٣].

* لقد مدحوا التعري ومجدوا الجوع والتسول:[٤]

قال السهروردي: «قد اتفق المشائخ على أن بناء أمرهم على أربعة أشياء: قلة الطعام، وقلة المنام، وقلة الكلام والاعتزال عن الناس»[٥].

وذكر الشعراني عن السيد البدوي: «أنه لازم الصمت، وما كان يكلم الناس إلا بالإشارة»[٦] مع العلم أن ملازمة الصمت من العادات البوذية.

ومن ذلك «أن البدوي كان طول نهاره وليله قائماً شاخصاً ببصره

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك.

(٤) انظر: التصوف المنشأ والمصادر: ص١٠٠-١١٣. ودراسات في التصوف: ص٢٥-٣٠.

(٥) عوارف المعارف: السهروردي، ص٢٢٣، ط دار الكتاب العربي، ١٩٨٣م.

(٦) الطبقات الكبرى: الشعراني، جـ١، ص١٨٢-١٨٣.

إلى السماء، وقد انقلب سواد عينيه إلى حمرة تتوقد كالجمر، وكان يمكث الأربعين يوماً وأكثر لا يأكل ولا يشرب ولا ينام»، «وكان إذا لبس ثوباً أو عمامة لا يخلعها للغسيل، ولا غيره حتى تذوب فيبدلونها بغيرها»[١].

«وكتب الدكتور عبد الحليم محمود، عن أحمد الدردير أنه ردّد الذكر ستة شهور حتى أحرق الذكر جسمه، وأذهب لحمه ودمه حتى صار مجرد الجلد على العظم»[٢].

وقد نقلوا حكايات وأساطير عجيبة لتمجيد الجوع فقالوا:

«إن سهل بن عبد الله التستري، كان لا يأكل الطعام نيّفاً وعشرين يوماً»[٣].

ونقلوا عن أحمد الرفاعي أنه قال: «أنا أحب للمريد الجوع والعري والفقر والذل»[٤].

* فلماذا هذا التعذيب للجسد؟ ولم كل هذه المجاهدات؟

«لقد كان الهدف الأسمى للمتصوفة، هو الوصول إلى الحضرة الإلهية، وكان الطريق إلى ذلك، هو ما تمثل في نظرتهم إلى الحياة من استهانة بها، وإعراض عن ملذاتها.. ومن هنا حببوا الخلوة والانقطاع

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) سيدي أحمد الدردير: د. عبد الحليم محمود، ص٧٦، ط القاهرة، ١٩٧٤م.

(٣) اللمع للطوسي: أبي نصر السراج، ص٢٦٩، ط دار الكتب الحديثة المصرية.

(٤) الأحوال الدينية عند المسلمين: علي بخيت الزهراني، ص٢٨٠-٢٨٣.

عن الناس والسياحة في البراري والقفار وتعذيب النفس بحرمانها مما أحل الله، وذلك بالرياضات الشاقة والمجاهدات المؤلمة...

وكان بعضهم يختار المغارات (الكهوف) ليختلي بنفسه وكان بعضهم ينقطع إلى الأودية والجبال كما فعل الشيخ وهبة المشهور بـ«أبي العظام» إذ نقل عنه أنه انقطع في الأودية والجبال نحو سبعة أعوام.[١]

* واعتبروا قلة النوم من أصول الولاية والكرامة:

يذكر الهجويري عن أحد أقطاب المتصوفة[٢] أنه لم ينم لأربعين عاماً، وعندما نام رأى الله سبحانه وتعالى في النوم، فقال: «يا إلهي! كنت أطلبك بسهر الليالي، فرأيتك في النوم، فقال يا شاه، لقد أدركت في النوم بغيتك بسهرك الليل، ولو كنت نمت هناك لما رأيت هنا».[٣]

* وقد ذم المتصوفة الزواج ومدحوا العزوبة:[٤]

حتى أنهم بوّبوا في كتبهم أبواباً مستقلة في مدح العزوبة وذم الزواج، ولعل هذا مأخوذ من رهبان النصارى، ونساك المسيحية الذين ألزموا أنفسهم التبتّل خلافاً لفطرة الله التي فطر الناس عليها.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) هو أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني.

(٣) كشف المحجوب: الهجويري، ص٣٥٠، ترجمة عربية، طبعة بيروت. أيضاً تذكرة الأولياء: العطار، ص١٦٩، عن دراسات في التصوف، ص٤٥.

(٤) انظر: التصوف المنشأ والمصادر: ص٥٠-٧٨.

﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١].

وثبت في الصحيحين عن أنس أن رجالاً سألوا عن عبادة رسول الله ﷺ، فكأنهم تقالوها فقالوا: وأينا مثل رسول الله ثم قال أحدهم: «أما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الآخر: أما أنا فأقوم ولا أنام.. وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، فقال رسول الله ﷺ: **«ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟ ولكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام.. وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»**[1].

هذا شرع الإسلام فماذا قال المتصوفة؟

ينقل الطوسي والعطار عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: «إذا تزوج الفقير، فمثله مثل رجل ركب السفينة فإذا ولد له ولد فقد غرق»[2].

ونقل عن بشر بن الحارث أنه قيل له: «إن الناس يتكلمون فيك فقال: وما عسى يقولون؟! قيل: يقولون: إنك تارك السنة يعنون النكاح.

فقال: قل لهم، إني مشغول بالفرض عن السنة، فالأفضل في زماننا هذا ترك التزويج»[3].

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) اللمع: الطوسي، ص٢٦٥.

(٣) قوت القلوب: جـ٢، ص٢٣٨.

ونقل الشعراني عن رباح بن عمرو القيسي - من الصوفية الأوائل - أنه قال: «لا يبلغ الرجل منازل الصديقين، حتى يترك زوجته كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام، ويأوي إلى منازل الكلاب».(١)

* ألا تجد أن هذا مشابه لكلام النصارى؟!

يقول رسول المسيحيين في رسالته إلى أهل كورفتوس:

«وأما من جهة الأمور التي كتبتم عنها، فحسن للرجل أن لا يلمس امرأة». ويقول كذلك: «أقول لغير المتزوجين والأرامل إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا».(٢)

* كما مدح المتصوفة الفقر ودعوا إلى ترك الدنيا:(٣)

ذكر المحاسبي عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: «إن كنت تحب أن تكون لله ولياً، وهو لك محب فدع الدنيا والآخرة، ولا ترغبنّ فيها»؟!

وقال ابن عجيبة الحسني مبيّناً حالة أهل التصوف: «الفقر أساس التصوف، وبه قوامه».(٤)

وذكر الصوفي عماد الدين الأموي في كتابه «حياة القلوب» أن رجلاً دخل على بعض الصوفية يتكلم في الزهد، وعنده قميص معلق

---

(١) طبقات الشعراني: جـ١، ص٤٦.

(٢) رسالة بولس من العهد الجديد: الإصحاح السابع (الأيتان ١٠، ٨).

(٣) انظر: التصوف المنشأ والمصادر: ص٧٤-٧٨.

(٤) إيقاظ الهمم: ابن عجيبة الحسني، ص٢١٣، ط٣، مصطفى البابي، ١٤٠٢هـ.

وعليه آخر فقال: يا شيخ، أما تستحي أن تتكلم في الزهد ولك قميصان؟»[١].

وذكر الكلاباذي عن أحمد بن السمين أنه قال: «كنت أمشي في طريق مكة، فإذا أنا برجل يصيح: أغثني يا رجل! قال خذ مني هذه الدراهم، فإني ما أقدر أن أذكر الله وهي معي، فأخذتها منه فصاح: لبيك اللهم لبيك، وكانت أربعة عشر درهماً»[٢].

وينقلون عن الرفاعي - صاحب الطريقة الرفاعية - أنه كان يقول: «أكره للفقراء دخول الحمام، وأحب لجميع أصحابي الجوع والعري والفقر والذل والمسكنة، وأفرح لهم إذا نزل بهم ذلك»[٣].

ويرى بعض المتصوفة أن هذه المعاني مقتبسة من النصرانية كما نص على ذلك أبو طالب المكي حيث قال: «روينا عن عيسى عليه السلام أنه قال: أجيعوا أكبادكم وأعروا أجسامكم، لعل قلوبكم ترى الله عز وجل»[٤].

وقال جولد زيهر «إن مدح الفقر وإيثاره على الغنى كان من

---

(١) حياة القلوب: عماد الدين الأموي، جـ٢، ص١٢٢، على هامش قوت القلوب، طبعة دار صادر، بيروت.

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف: الكلاباذي، ص١٨٥، طبعة القاهرة، ١٤٠٠هـ.

(٣) النفحة العلية في أوراد الشاذلية: عبد القادر زكي، ص٢٦٣، مكتبة المثنى بالقاهرة.

(٤) قوت القلوب: لأبي طالب المكي، جـ٢، ص٦٧.

العناصر النصرانية»[١].

فمن خصائص المسيحية وتعاليمها ترك الدنيا والتجرد عن المال والجوع وتعري الأجساد والإعراض عن زينة الحياة المباحة وتحريم الطيبات باسم الانقطاع إلى الآخرة[٢].

وكل ذلك مضاد للفطرة السوية، ولذلك بقيت تعاليم النصرانية المحرفة أفكاراً مثالية لا تطبق في عالم الواقع، بل إن كثيراً من الرهبان انجرفوا في حمأة الرذيلة، وتعلقوا بأطايب الدنيا، ناهيك عن الغرب الذي يدين بالنصرانية.

وهذا ما وقع فيه كثير من المتصوفة تعلقاً بالحياة الدنيا باسم الزهد والدروشة، وخاصة في العصور المتأخرة.

فلا إفراط ولا تفريط، وكل ذلك انحراف ينافي هدي الإسلام.

«فالصمت الدائم بدعة منهي عنها، وكذلك الامتناع عن أكل الخبز واللحم وشرب الماء، فذلك من البدع المذمومة أيضاً.

كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس فقال: «ما هذا؟!»، فقالوا: أبو إسرائيل قد رأى أن يقوم في الشمس ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم،

---

(١) انظر: كتاب التصوف الإسلامي منهجاً وسلوكاً: د. عبد الرحمن عميرة، ص٣٣، مكتبة الكليات الأزهرية.

(٢) انظر: التصوف المنشأ والمصادر: ص٦٤-٦٥.

فقال النبي ﷺ: «مروه فليجلس، وليستظل وليتكمم وليتمّ صومه»[(١)].

وقال ابن تيمية عن الرجل[(٢)] «يتعبد بغير العبادات المشروعة، وإن كان خالصاً في نيته - مثل الذي يصمت دائماً أو يقوم في الشمس، أو على السطح دائماً، أو يتعرى من الثياب دائماً، ويلازم لبس الصوف، أو لبس الليف ونحوه، .. أو يمتنع عن شرب الماء أو أكل الخبز واللحم، ونحو ذلك.. كانت هذه العبادات باطلة ومردودة، كما ثبت في الصحيح عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[(٣)]. لقد كان زهد الصحابة في متاع الدنيا، ذلك الزهد الإيجابي البناء، ذلك الزهد الذي يدفع أصحابه إلى الجهاد والمجالدة والمواجهة، لا إلى الانحسار داخل النفس، وهو الزهد الذي يحصن النفس ضد الفتنة، لا الذي يقتل النفس للوقاية منها.

أما الصوفية: فقد انصرفوا إلى الصلاة أو الصيام والذكر، وقالوا: هذه هي الأعمال المطلوبة للآخرة، أما أمور الدنيا فلا حاجة لنا إلى الخوض فيها، لأنها فتنة توقع في حبائل الشيطان.

وكانت النتيجة بسبب هذا الفكر السلبي إضافة إلى الفكر الإرجائي الذي شجّع على التفلت من التكاليف أن وصل العالم الإسلامي إلى حالته الراهنة من الفقر والجهل والمرض»[(٤)].

---

(١) الفتاوى: ابن تيمية، جـ١١، ص٢٠٠.

(٢) المرجع السابق: جـ١١، ص٦١٣.

(٣) متفق عليه.

(٤) انظر: مفاهيم ينبغي أن تصحح: الأستاذ محمد قطب، ص٣٢٣، ٣٢٨.

٢ - تعدد الطرق وانتشار الزوايا والأربطة:

انتشرت الطرق الصوفية في العالم الإسلامي في القرون الأخيرة، وكثرت الزوايا والتكايا التي يقيمون فيها شعائرهم، ويأوون إليها متفرغين لأورادهم وسماعهم، بعيداً عن كد المعاش، وعمارة الأرض.

والطريق الصوفي: «ما يضعه شيخ من مشايخ الصوفية لمجموعة من المريدين من أوضاع يلتزمونها ويختصون بها دون غيرهم»[(١)].

«فالشيخ الصوفي - شيخ الطريقة - يفرض الطريقة على المريدين، وقد انكشف له الحجاب، وتجلت له الأقدار، وعرف الأسرار، إلى غير ذلك مما يروّج على ألسنة أتباع الطريقة»[(٢)].

وعلى المريد أن يواظب على الأوراد والأذكار التي لقنه إياها الشيخ وأن يكون في علاقاته بشيخه كما عبر الشيخ القشيري «كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء».

وقد ظلت هذه مناهج الطريق، حتى أخذ العمل الصوفي في القرون المتأخرة الشكل الجماعي، والأسلوب التنظيمي في البلاد الإسلامية، أي منذ القرن السادس الهجري.

ويعتقد أصحاب الطرق الصوفية أن سلوك الطريق، له مراحل تبدأ بمرتبة المريد، ثم يعطى الأوراد ويسمى «سالكاً» للطريق، ثم يرتقي

---

(١) التيجانية: علي بن محمد الدخيل الله، ص٢٨، دار طيبة، الرياض.

(٢) الرسالة القشيرية: ص٩٥، ٢٠، تحقيق د. عبد الحليم محمود، الطبعة الأولى، ١٩٦٣م.

بالذكر وصدق النية، حتى يصل إلى مقام «العبودية» ثم يصل إلى مقام «العشق» والوجد والهيام، حتى تصل النفحات الربانية والبركات الإلهية، وهنا يصل السالك إلى «مقام الحقيقة».

وبعدها قد يفنى العبد عن نفسه وحظوظه، فيصل إلى «الفناء واللقاء والبقاء». أي برب العباد، وهذا هو منتهى الضلال في الكفر، ومن ثم حالات: الحلول والاتحاد ووحدة الوجود.[1]

* أوراد الصوفية وأذكارها:[2]

وقد اخترع الصوفية وظائف وأوراداً، وجعلوا لها ثواباً من عند أنفسهم، وأوجدوا لها حلقاً وآداباً.

ومن هذه الأوراد، ما لم يرد في كتاب ولا سنة...

فعندما يذكر رسول الله ﷺ: أن أفضل الذكر لا إله إلا الله محمد رسول الله. يقول بايزيد الأنصاري وهو يقسم الذكر إلى أقسام:

«أما ذكر لا إله إلا الله محمد رسول الله، فهو ذلك اللسان، وهو يجوز في الشريعة، وذكر (لا إله إلا الله) هو ذكر القلب، وهو يجوز في الطريقة، وذكر (إلا الله) هو ذكر الروح، وهو يجوز في الحقيقة وذكر (الله) هو ذكر السر، وهو يجوز في المعرفة، وذكر (هو) هو ذكر الغيب، وهو يجوز في القربة، والاسم الأعظم هو ذكر المذكور، وهو يجوز في

---

(١) انظر: دراسات في الفرق: د. صابر طعيمة، ص١١٣-١١٧، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ.

(٢) انظر: دراسات في التصوف: إحسان إلهي ظهير، ص١٨٩-٢١٢.

الوحدة.[١]

وحُكي عن الشبيلي أنه قيل له: لِمَ تقول: «الله»؟ ولا تقول: «لا إله إلا الله»؟ فقال: أستحي أن أوجه إثباتاً بعد نفي.. أخشى أن أؤخذ في كلمة الجحود، ولا أصل إلى كلمة الإقرار».[٢]

وقد كثرت بدعهم في ذلك، حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لا إله إلا الله»، ومثل: «الله أكبر» ومثل «سبحان الله والحمد لله». فأما الاسم المفرد مظهراً مثل «الله، الله» أو مضمراً مثل: «هو، هو» فهذا ليس بمشروع في كتاب ولا سنة، ولا هو مأثور أيضاً عن أحد من السلف، وإنما لهج به قوم من ضلال المتأخرين.

وربما غلا بعضهم في ذلك حتى جعلوا ذكر الاسم المفرد للخاصة وذكر الكلمة التامة للعامة».[٣]

ويقول أيضاً: «أما ذكر الاسم المفرد، فبدعة لم يشرع وليس هو بكلام يعقل، ولا فيه إيمان.. ومن العجب أن الصوفية يقولون: ذكر العامة «لا إله إلا الله» وذكر الخاصة «الله، الله» وذكر خاصة الخاصة «هو، هو». وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الكلام بعد القرآن أربع، وهو من القرآن، سبحان الله، والحمد لله، ولا

---

(١) مقصود المؤمنين: بايزيد الأنصاري، ص٣٠٦، طبعة إسلام أباد، باكستان، نقلاً عن دراسات في التصوف، ص١٩٢، إحسان إلهي ظهير.

(٢) انظر: شطحات الصوفية: للدكتور عبد الرحمن بدوي، ص٤٤، طبعة الكويت.

(٣) الفتاوى: ابن تيمية، جـ١٠، ص٥٥٦.

إله إلا الله، والله أكبر».

وفي حديث آخر: «أفضل الذكر لا إله إلا الله»[١] والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ولم يكتف المتصوفة بهذا الإعراض عن الذكر الشرعي، بل ابتدعوا أحزاباً سبعة، وزعوها على أيام الأسبوع، يكررها الصوفية معرضين عن الأوراد والأذكار المأثورة في كتب السنة، واخترعوا لها فضائل ومناقب، منها ما ذكروه: «من قرأ مرة واحدة كتب الله له ثواب حجة مقبولة، وثواب من أعتق رقبة من ولد إسماعيل عليه السلام، فيقول الله تعالى: «يا ملائكتي هذا عبد من عبادي أكثر الصلاة على حبيبي محمد، فوعزتي وجلالي لأعطينه بكل حرف صلى قصراً في الجنة..»[٢]

ويعتقد بعض المتصوفة أنهم أخذوا هذه الأذكار، والوظائف والأحزاب من علي رضي الله عنه، أو من الخضر عليه السلام، أو من رسول الله مباشرة، عليه أفضل الصلاة والتسليم، كحزب أبي الحسن الشاذلي، الذي سماه «حزب البحر وكلماته: «رب يسر وسهل، ولا تعسر علينا، يا ميسر كل عسير، بحق: أ ب ت ث... هو، لاي.. بسم الله «بابنا»

(١) المرجع السابق: جـ١٠، ص٣٩٦.

(٢) انظر: دلائل الخيرات: ص١١٢-١١٣، طبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٤٦هـ.

تبارك «حيطاننا» يس «سقفنا» كهيعص كفايتنا..[١]

رُوي أنه لما اعترض الفقهاء على حزب الشاذلي هذا قال الشيخ: «والله لقد أخذته من رسول الله ﷺ حرفاً بحرف».[٢]

هذا وللذكر عندهم آداب: «فلا يتلو المريد ورداً إلا بإذن من شيخه، أو يلقنه إياه، وأن يجلس على هيئة المتشهد وأن يراقب صورة شيخه في جميع عباداته، وأن يستمد من شيخه بقلبه... وألا يشرب عقب الذكر مباشرة، وينتظر قليلاً في مكانه بعد الذكر صامتاً مستحضراً..».[٣]

«فهذه آداب غريبة عجيبة، تسربت إلى المتصوفة من طقوس الهنود البوذية» وقد تحول الدين عندهم إلى كهنوت جديد ورسوم خاوية.[٤]

* لقد تحول السواد الأعظم من المسلمين إلى اتّباع هذه الطرق:

وقلما تجد في كتب التراجم والرجال ترجمة لرجل إلا وفيها ذكر الطريقة التي ينتمي إليها، مع ذكر شيوخه الذين أخذ عنهم هذه الطريقة، وكأنما أضحت هذه الطرق هي الدرجة الرفيعة من الدين،

---

(١) انظر: النفحة العلية في أوراد الشاذلية: ص١٢، عبد القادر زكي، طبع مكتبة المثنى، القاهرة.

(٢) جامع كرامات الأولياء: النبهاني، جـ٢، ص١٧٦.

(٣) أبو الحسن الشاذلي: د. عبد الحليم محمود، ص٣٨٧.

(٤) انظر: دراسات في التصوف: ص٢١٢، إحسان إلهي ظهير.

ويتسابق إليها العلماء قبل غيرهم.

وكان الكثير من المتصوفة في ذلك العصر، لا يكتفون بطريقة واحدة، بل كثيراً ما يسعون لأخذ أكثر من طريقة، ويرون أن ذلك زيادة في الدين والخير.

وكان شيوخهم يتنقلون بين البلدان ينشرون خرافاتهم وبدعهم، ويتحمّلون ما يصيبهم من عنت ومشقة في سبيل تبليغ طرقهم ونشرها بين الناس.(١)

فالدعوة إلى الله كانت عند الناس هي الدعوة إلى الطرق الصوفية، وكان النصح والإرشاد بتوجيه الناس إلى الصوفية... وكان الدين والصلاح – في العرف السائد – هما الصوفية، ولهذا كان يحرص الآباء على تنشئة أبنائهم نشأة صوفية.(٢)

وقد ذكر الدكتور توفيق الطويل أن الطرق الصوفية كثرت كثرة مفطرة في العهد العثماني، إذ بلغت حوالي ثمانين طريقة، أما في زمنه «قبل حوالي أكثر من نصف قرن من الآن» فقد بلغت خمساً وأربعين طريقة، لكل منها شيخ له نواب في المركز التي يستحوذ فيها على كثرة من المريدين والأتباع، ثم يكون له خلفاء في المدن والقرى، ولكل

---

(١) الأحوال الدينية عند المسلمين في القرنين الثالث والرابع الهجريين: علي بن بخيت الزهراني، ١٤١٤هـ، ص٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٦.

(٢) المرجع السابق: علي بن بخيت الزهراني، ص٢٩٨.

منهم مريدون يسلكون طريقة الشيخ.[1]

وقد بلغت الطرق الصوفية زمن السلطان عبد الحميد سبعين طريقة.[2]

* التآخي بين النساء والرجال في الطرق الصوفية:[3]

يقول الشعراني: «إن أتباع الأحمدية «البدوي» والبرهامية «أي إبراهيم الدسوقي»، والقادرية «أي عبد القادر الجيلاني» يأخذون العهد على المرأة، ثم يصيرون يدخلون عليها في غيبة زوجها «أي أنهم اتخذوا من التصوف طريقاً للوصول إلى النساء، بدعوى أنها صارت بنته أو أخته في الطريق، وتحت هذا الشعار يخلو بها ويكون الشيطان ثالثهما.

وبهذه الوسيلة اشتدّ خطر الصوفية الأحمدية، ورفاقهم على المجتمع المصري». وهذا الشعراني نفسه يقول في القرن العاشر الهجري «إياك أن تمكن جاريتك - أي ابنتك - أن يأخذ أحد من الأحمدية أو البرهامية العهد عليها إلا مع المحافظة على آداب الشريعة».[4]

وهذا ابن الحاج الفقيه الصوفي يندد لما ظهر من البدع الأحمدية،

---

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني: ص٧٤، نقلاً عن السابق، ص٣٠٠.

(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية: ص١٢٢، موفق المرجة، الكويت، ١٩٨١م.

(٣) السيد البدوي - دراسة نقدية: د. عبد الله صابر، ص٣٤-٣٥.

(٤) السيد البدوي: د. أحمد منصور، ص٣٣٤، عن لواقح الأنوار: ص٣٢٣.

مثل المؤاخاة مع النساء، كستار يخفي الانحلال الخلقي. يقول: «آخى بعضهم بين الرجال والنساء، بل كانت بعض النساء تعيش مع بعض الرجال ويزعمون أنهن أخواتهم من الشيخ.»[1]

ومن الغريب أن تتحول الطرق الصوفية إلى اللهو والعبث والانحلال، ولاشك أن الباطنية والمذاهب الهدامة قد نخرت في جسمها، فليالي الإفاضة وشيوعية النساء عند القرامطة معروفة، وإباحة المحارم معروفة عنهم أيضاً.

* أما الزوايا:[2]

فقد كانت تعتبر أهم محاضن الصوفية، وأكثر نقاط تجمع أصحابها. وكان الحكام والآباء يتسابقون في إنشائها وتعميرها، ويستجيبون لمطالب شيوخ الطرق، وخاصة في القرون المتأخرة.

وكان الصوفيون في كثير من الأحيان يبادرون إلى بناء زواياهم، لأن الزوايا بالنسبة إليهم، تمثل شرايين الحياة، التي تجري فيها طرقهم وطقوسهم وبدعهم.

وقد كثرت الزوايا كثرة مفرطة في العصر العثماني، ففي القاهرة وحدها كان يوجد مائتان وخمسة وعشرون زاوية... ومما يؤسف له أن عدد الزوايا الصوفية كان يفوق بكثير عدد المساجد والمدارس.

---

(١) المدخل: ابن الحاج، جـ٢، ص٢٠٤. نقلاً عن: السيد البدوي: د. عبد الله صابر، ص٣٥.

(٢) انظر: الأحوال الدينية عند المسلمين: علي بن بخيت الزهراني، ص٣٠٠-٣٠٢.

يقول الشيخ محمد الحجوي (المتوفى سنة ١٣٧٦هـ): (١)

«حتى أنك إذا بحثت في أي مدينة، أو قرية في غالب الممالك الإسلامية تجد زواياها أكثر من المساجد ومن المدارس، ولا تكاد تجد عائلة إلا وهي آخذة طريقة من الطرق، تتعصب لها برجالها ونسائها وصبيانها..

والطامة الكبرى هي أن من ينتسب للعلم من أهل زماننا يتسابقون للأخذ عن تلك الطرق البدعية، ويتحزبون لها...».

وبذلك انحصرت اهتمامات السواد الأعظم من المسلمين، في طرق وزوايا وأوراد، قلما يسأل هؤلاء عن مدى موافقتها لشرع الله، وازدادت السلبية عندما تعلق هؤلاء بسماع الأناشيد مع الموسيقى أحياناً، والترنح اللاواعي أحياناً أخرى، مع الميل إلى البطالة، وتعطيل شعيرة الجهاد في سبيل الله كما سيأتي بيانه.

* ومن أغرب ما نشاهده عند المتصوفة، أنهم في هذا العصر يعقدون حلقات الذكر، فتزدحم الشوارع بالمريدين، يستمعون الساعات الطوال للمنشدين، وهم يحسبون أنهم في عبادة لله، ولا نجد أحداً منهم يصلي الصلاة المكتوبة في المسجد رغم قربه من أماكن هذه الحلقات، فالمؤذن يؤذن وتقام الصلوات وتنتهي، ومع الأسف، لا نرى أحداً من هؤلاء المتصوفة، يرتاد المسجد ويستمرون فيما هم فيه من وجْد وأناشيد ولهو، وهذا لو تعلق

---

(١) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: تحقيق د. عبد العزيز القارئ، المكتبة العلمية بالمدينة، ط١٣٩٦هـ، جـ٢، ص٦١٢.

به المسلمون في القرون المفضلة لما فتحوا العالم، ولما انتشر هذا الدين في مشارق الأرض ومغاربها.

٣- الوجْد والسماع:(١)

ابتدع المتصوفة في حلقاتهم ألواناً من الذكر وسماع الأناشيد الغزلية، حتى جعل بعضهم الرقص والسماع من العبادات المفضلة.

وكانت مجالس الذكر تعقد في الزوايا والخلوات غالباً، وربما عقدت في المساجد أحياناً.

يقول أبو الهدى الصيادي الرفاعي وهو يصف هذه الحلقات: «وفي أثناء ذكرهم، يهتزون يميناً وشمالاً، يميلون ويبكون ويتواجدون، ويئنون ويتأوهون... وينشد لهم الحادي من كلمات الصالحين، ومن منظومات العارفين، وأقوال العاشقين الصادقين شيئاً كثيراً من المدائح النبوية»(٢).

ويذكر محمد رؤوف الشيخلي وصفاً لمجلس من مجالس الذكر في بغداد فيقول: «وأن الذاكرين في المجلس، يصاب بعضهم بغيبوبة فيتكلمون بكلام غير مفهوم، ويخرج من أفواههم زبد أبيض، وهم قائمون وقاعدون ويأتون بحركات اختيارية، كأن يترنحوا واقفين ويتمرغوا على الأرض..»(٣).

(١) انظر تفصيلاً لذلك: دراسات في التصوف: إحسان إلهي ظهير، ص١٥٠-١٨٥.

(٢) رياض الأسماع في أحكام الذكر والسماع: مطبعة التمدن بمصر، ١٩٠٣م، ص٦-١٤.

(٣) نهر الذهب في تاريخ حلب: جـ١، ص٢٨١، المطبعة المارونية، ١٣٤٢هـ، كامل بن حسين الحلبي. وانظر: الأحوال الدينية عند المسلمين: ص٣٠٢-٣٠٤، الزهراني.

* السماع:[١]

من البدع العملية عند المتصوفة، سماع الأناشيد والأشعار الغزلية، ففيها ذكر الهجر والوصل، والقطيعة والشوق والحب والعشق، وفيها ذكر الخمر والكؤوس، مع آلات أو بدونها مكاءً وتصديةً.

وتعتبر حلقات الذكر عندهم، من أفضل العبادات، ويرون أن الذاكر جليس الله، وليس يصلح لمجالسة الله غير أكابر أهل الحضرة، وقد نقل الشعراني عن الحارث المحاسبي أنه كان يقول: «مما يتمتع به الفقراء سماع الصوت الحسن»[٢].

ونقلوا عن الجنيد أنه كان يقول: «الرحمة» تنزل على الفقير بثلاثة مواضع: عند الأكل فإنه لا يأكل إلا عند الحاجة، وعند الكلام فإنه لا يتكلم إلا لضرورة، وعند السماع فإنه لا يسمع إلا عند الوجد»[٣].

واستخدموا لذلك أبياتاً ومقطوعات في الغزل والعشق، ويزعمون أنهم يقصدون بها حب الله.

من ذلك ما نقله السهروردي في عوارفه عن ذي النون أنه لما دخل بغداد، دخل عليه جماعة ومعهم قوّال، فاستأذنوه أن يقول شيئاً،

---

(١) انظر: دراسات في التصوف: إحسان إلهي ظهير، ص١٥٠-١٦١.

(٢) الأنوار المقدسية في معرفة قواعد الصوفية: الشعراني، جـ٢، ص٦٧٩، طبعة دار إحياء التراث العربي، بغداد.

(٣) كتاب اللمع: الطوسي. والرسالة القشيرية: جـ٢، ص٦٤٥.

فأذن له فأنشد القوال:

صغير هواك عذبني فكيف به إذا احتنكا
وأنت جمعت من قلبي هوى قد كان مشتركا
أما ترثي لمكتئب إذا ضحك الخلي بكى

فطاب قلبه، وقام وتواجد وسقط على جبهته، والدم يقطر (من جبهته) ولا يقع على الأرض.(١)

* وقد حاكى شعراء الصوفية شعراء الحب العذري:

فذكروا اسم المحبوبة ومواطن اللقاء، وتصوير أيام الصبا، وتحدثوا عن مواطن الفتنة في طرفها وجيدها ووجهها وحديثها، وكانت ليلاهم - على حد ما زعموا - فريدة في تمنعها وعزتها، ويزعم المتصوفة أنهم نقلوا سلوك الزهد والتقشف من عالم العبارة كما يقولون إلى عالم الإشارة كما يزعمون.(٢)

وانظر إلى قول ميمونة، فيما نسبه إليها النيسابوري في عقلاء المجانين:

---

(١) عوارف المعارف: السهروردي، ص١٧٩. الرسالة القشيرية: جـ٢، ص٦٥٠.

(٢) انظر: دراسات في الفرق: د. صابر طعيمة، ص١١٣-١١٧، مكتبة المعارف، الرياض ١٢٠-١٢٣.

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرونا
وألسنة بسر قد تناجي تغيب عن الكرام الكاتبينا
وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمينا
فتسقيها شراب الصدق صرفاً وتشرب من كؤوس العارفينا

وانظر إلى عذوبة اللفظ، وشدة التوله في قول ريحانة التي ترجم لها النيسابوري أيضاً في (عقلاء المجانين):

حسْب المحب من الحبيب بعلمه أن المحب ببابه مطروح
والقلب فيه إن تنفس الدجى بسهام لوعات الهوى مجروح

«ونقل الغزالي عن النوري، أنه كان مع جماعة في دعوى، فجرى بينهم مسألة في العلم، وأبو الحسين النوري ساكت، ثم رفع رأسه وأنشدهم:[1]

رب ورقاء هتوف في الضحى ذات شجو صدحت في فنن
ذكرت إلفاً ودهراً صالحاً وبكت حزناً فهاجت حزني
فبكائي ربما أرقها وبكاها ربما أرقني
غير أني بالجوى أعرفها وهي أيضاً بالجوى تعرفني

«وقد ذكر ابن خلكان شعراً للرفاعي الكبير إذ يقول:

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين: جـ٢، ص٢٧٣، ٢٧٤.

وإذا جنّ ليلي هام قلبي بذكركم أنوح كما ناح الحمام المطوق
وفوقي سحاب يمطر الهم والأسى وتحتي بحار بالأسى تتدفق
سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها تفك الأسارى وهو موثق
فلا هو مقتول ففي القتل راحة ولا هو ممنون عليه فيطلق

ولم يزل على تلك الحال إلى أن توفي.[1]

وزاد ابن كثير في تاريخه بعد هذه الأبيات:[2]

أغار عليها من أبيها وأمها ومن كل من يدنو إليها وينظر
وأحسد للمرأة أيضاً بكفها إذا نظرت مثل الذي أنا أنظر

فهذا الشعر وهذه الأناشيد المليئة بذكر ما يذكره الغاوون، تغنى على ألحان وأنغام، مع آلات اللهو، وقد يكون القوال «المنشد» من الجواري والبنات، وقد تكون حلقات السماع والذكر مختلطة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد ذكروا آداباً لهذا السماع والغناء، لا تقل عن آداب سماع القرآن كمراعاة الزمان والمكان والإخوان، وأن يصغي السامع وهو حاضر القلب، قليل الالتفات، وإذا رقص أو تباكى فهو مباح، وأن

---

(١) وفيات الأعيان: ابن خلكان، جـ١، ص١٧١-١٧٢.

(٢) البداية والنهاية: جـ١٢، ص٣١٢.

يوافق القوم في القيام والجلوس.[١]

* الحب الإلهي:

وهي فكرة نتجت عن اعتقاد المتصوفة بوحدة الوجود، ولذلك فقد عشقوا الصور الجميلة لاعتقادهم أنها مظاهر الحق، فتصوف وحدة الوجود فيها دعوة إلى خلاعة ماجنة، وإلى حب الشهوات الرذيلة، حيث جعلوا العشق الطبيعي سلّماً للحب الإلهي، وحاكوا في كتبهم الحكايات الغزلية وأساطير العشاق، وجعلوا مجنون ليلى قدوة لهم في حبهم لله تعالى.[٢]

وقد ذكرنا نماذج من هذا الغزل في الفقرة السابقة.

ومن هذا المنطلق أحب ابن عربي امرأة ذات مرة - وهي ابنة الشيخ مكين الدين - في مكة!! وعندما تمنعت عليه وأبت أن تنساق مع خطيئته، راح يتوسل إليها ونظم فيها ديوانه: «ترجمان العشاق»، ويؤكد لها فيه أنها هي «الرب» متجسداً في صورة أنثى جميلة، وأنه ما أحبها إلا لأنها أجمل تجليات الحقيقة الإلهية، وأنه إذ يتشهاها، فإنما يتشهى فيها أنوثة ربه وجسده الفائر - حاشا لله - فأبت المرأة إلا أن تكون شريفة.[٣]

---

(١) إحياء علوم الدين: الغزالي، جـ٢، ص٢٧٦ وما بعدها.

(٢) دراسات في التصوف: إحسان إلهي ظهير، ص٣٠٢.

(٣) هذه هي الصوفية: عبد الرحمن الوكيل، ص٢٣٩، دار الكتب العلمية، بيروت.

فهذا الانحلال ليس غريباً على فرق الباطنية من الإسماعيلية والقرامطة والحشاشين، فجذورهم جميعاً اليهودية، وليالي الإفاضة وشيوعية النساء عند القرامطة معروفة.[١]

ومن هذا المنطلق قال ابن الدباغ:

«فالنظر إلى الجماع عبادة إذا قصد بالتعلق به الوصول إلى الخالق، إذ لا يستدل على علم الصانع وقدرته إلا بإتقان صنعته وإحكامها.. فلا يعطي الجمال إلا من هو أجمل منه».

ويقول في ذلك شعراً:

وقد قلتها لي ليس في الأرض جنة ... أما هذه فوق الركائب حورها
يقول خليلي والظباء سوانح ... أهذا الذي تهوى فقلت نظيرها
لئن شابهت أجيادها وعيونها ... لقد خالفت أعجازها وصدورها
أراك الحمى قل لي بأي وسيلة ... توسلت قبلتك ثغورها[٢]

فانظر إلى القوم كيف يدعون إلى معصية الله ورسوله بالحث على النظر إلى النساء الجميلات، بدليل أن النظر إلى جمالهن يوصل إلى محبة الله، ويدل على حبه، إذ أنه هو خالق ذاك الجمال، وأن خالقه أجمل منه.[٣]

---

(١) السيد البدوي: د. عبد الله صابر، ص٣٦.

(٢) مشارق أنوار القلوب: ابن الدباغ، ص٤٧-٤٨، طبعة دار صادر، بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٣) دراسات في التصوف: إحسان إلهي ظهير، ص٣٠٣.

أين ذلك من قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

*** الوجد والرقص:**

يعتبر من طرق المتصوفة في الذكر والعبادات الاستهتار والاستخفاف، والرقص الجماعي مع سماع الذكر والأناشيد على الدفوف.

ومن أناشيدهم ما يقوله يحيى بن معاذ المتوفى سنة ٢٥٨هـ:

دققنا الأرض بالرقص على غيب معانيكا
ولا عيب على رقص لعبد هائم فيكا
وهذا دقنا للأرض إذا طفنا بواديكا (١)

فقد كان للسماع عند جمهور المتصوفة منزلة عظيمة سرعان ما يتحول الذكر إلى رفع الصوت، والحركة الشديدة. ويدافع أبو الهدى الصيادي عما يقع من المتصوفة من حركات هوجاء أثناء ذكرهم ويقول: «من لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن لطف الاعتدال بعيد

---

(١) دراسات في الفرق: د. صابر طعيمة، ص٦١. عن اللمع: أبو نصر سراج الدين، ص٤٥٢.

عن نور الروحانية.. فالسماع يثمر حالة في القلب، وتسمى وجداً، ويثمر الوجد تحريك الأطراف، إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب، وإما بحركة موزونة فتسمى التصفيق والرقص»[١] وقد أباح المتصوفة الغناء والسماع والرقص، وكان كثير منهم يقبلون على استماع الملاهي والمعازف ويتعلمون الموسيقى.

يقول أبو الهدى الصيادي من قصيدة له في الدف، الذي كانت لا تخلو منه حلقة إلا قليلاً:

اضرب الدف وجانب جاهلاً	حكمة الشرع لمعنى ما درى
كل ما حرك قلباً ساكناً	ودعا العقل به معتبرا
وأجال الروح في برزخها	تذكر الله وتبغي مظهرا
إن في الدف وفي رنته	نغمة يعرفها من ذكرا
صوته ذكر وفي لحنه	أنه تذكر أوقات السرى
نضرب الدف ومنه عندنا	ذاكراً نسمعه لن يفترا

قال ابن تيمية رحمه الله: «الضرب باليد على أختها أو غيرها على دف أو طبل كناقوس النصارى، والنفخ في صفارة كبوق اليهود، فمن فعل هذه الملاهي على وجه الديانة والتقرب، فلا ريب في ضلالته

(١) رياضة الأسماع: أبو الهوى الصيادي، ص٤٥. وانظر: الأحوال الدينية عند المسلمين: ص٣٠٦-٣٠٨، علي بن بخيت الزهراني.

وجهالته»[1].

ومن ثمار الوجد ولواحقه عند الصوفية والرقص.[2]

يقول السهروردي: «ربما صار الرقص عبادة بحسن النية إذا نوى به استجمام النفس»[3].

وقد أحل أبو حامد الغزالي الرقص، كما أباح تمزيق الثياب وتقطيعها يقول: «فإن قلت: فما تقول في تمزيق الصوفية الثياب الجديدة بعد سكون الوجد والفراغ من السماع، فإنهم يمزقونها قطعاً صغاراً، ويفرقونها على القوم ويسمونها الخرقة فاعلم أن ذلك مباح»[4].

ومما أخذ على الأحمدية «أحمد البدوي» الضرب بالدف عند الذكر والرقص والتصفيق، فإذا دب الطرب مع المتصوف قليلاً، حرّك رأسه كما يفعل أهل الخمر، ثم إذا تمكن الطرب منه ذهب حياؤه ووقاره، فيقوم ويرقص وينادي ويبكي.. ويدخل ويخرج ويبسط يديه، ويرفع رأسه نحو السماء وكأنه جاءه المدد منها، ويخرج الرغو أي الزّبد من فيه، وربما مزق بعض ثيابه. وعبث بلحيته.[5]

هذا ومنذ القرن الخامس الهجري وحتى اليوم، فإن معظم الفرق

---

(١) الفتاوى: ابن تيمية، جـ١١، ص١٧٦.

(٢) انظر: دراسات في التصوف: إحسان إلهي ظهير، ص١٨٠-١٨٥.

(٣) عوارف المعارف: السهروردي، ص١٨٠.

(٤) إحياء علوم الدين: جـ٢، ص٢٧٨-٢٧٩، طبعة دار القلم، بيروت.

(٥) السيد البدوي: د. عبد الله صابر، ص٣٤، نقلاً عن سعيد عاشور، عن المدخل: ابن الحاج، جـ٢، ص٢ وما بعدها.

الصوفية ينتظمون في ذكرهم وحلقاتهم مجموعات مجموعات من الرجال والنساء معاً وبدون حجاب.. وفي مواسم ذكر الشيخ أو ميلاد أئمة الطريقة يقومون بحلقات للإنشاد الجماعي أشبه ما يكون برقص جماعي..

وقد دفع ذلك بشاهد عيان[١] وهو في سن الشباب إلى بيت أحد الشيوخ من أصحاب طريقة شهيرة، فوجد في حلبة الذكر الجماعي رجلاً ضخم الجثة، يمسك عصاً ومسبحة، وكان يضرب بعصاه الأرض متنقلاً بين زحام الذكر، وقد غص المكان بالرجال والنساء، وبينهم شباب وشابات في سن العشرين، وكان الرجل ينتقل وهو يردد قول الحلاج، والذي حاكى فيه ابن أبي ربيعة في حبه العذري:

ولا ذكرتك محزوناً ولا فرحاً	إلا وأنت بقلبي بين وسواسي
ولا هممت بشرب الماء من	إلا رأيت خيالاً منك في الكأس

وإذا بصوت نسائي يصدر من بين الحلبة التي علا ضجيجها يعلق على هذين البيتين حين كان الرجل يرددها بالنغم المميز للطريق بحركة «هستيرية» مندفعة بين الصفوف تروح وتجيء وهي في سن الشباب ترتدي ثوباً أبيض ضاق بجسدها الممتلئ وهي تقول: يا روحي يا روحي يا روحي، ثلاث مرات، ألهبت حماس جميع من في الحلقة فتحولت العبادة المزعومة، وذلك القلب المدعى، إلى هدير

---

(١) هو الدكتور جابر طعيمة في كتابه: دراسات في الفرق: ص١٢٣ وما بعدها.

راقص، كان المنشد أشبه بمقام «المايسترو»، وحين أدرك أنهم أجهدوا، وبدءوا يتساقطون، أمسك عنهم، وهم بين الأنات والآهات والصراخ.

وقام كاتب السطور - شاهد عيان - وهو في ريعان شبابه يضرب كفاً على كف وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله... ويتساءل هل كان من الممكن أن ينتشر الإسلام بين الأمم لو انشغل السلف في صدر الدعوة بمثلب هذا العبث؟!»

أين هذا من عبادة المسلمين، وعباد الله المؤمنين؟! ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢].

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم:٥٨].

على هذا السماع، سماع آيات الله تتلى كان أصحاب رسول الله يجتمعون، وليس على المزمار والدف والرقص والرعونة.

فما حكم هذا السماع، وما حكم الرقص والدف والمزمار؟!

قال ابن تيمية رحمه الله في مواضع من فتواه:

«فعبادة المسلمين الركوع والسجود، أما الدف والرقص فلم يأمر الله به ولا رسوله ولا أحد من سلف الأمة، بل أمروا بالقرآن في الصلاة والسكينة» «وهذه الأحوال الفاسدة، من كان فيها صادقاً فهو مبتدع ضال... ممن ضارعوا عبّاد النصارى والمشركين والصابئين في

بعض ما لهم من الأحوال، ومن كان كاذباً فهو منافق ضال»[١].

وقال: «أما السماع المحدث، سماع الكف والدف والقضيب فلم تكن الصحابة والتابعون لهم بإحسان يجعلون من هذا طريقاً إلى الله تبارك وتعالى، ولا يعدّونه من القرب والطاعات، بل يعدّونه من البدع المزعومة، حتى قال الشافعي رحمه الله: خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة، يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن».

«والذين حضروا السماع المحدث الذي جعله الشافعي من أحداث الزنادقة، لم يكونوا يجتمعون مع مردان ونسوان، ولا مع مصلصلات وشبابات، وكانت أشعارهم مزهدات ومرققات».

«وهذا السماع المنكر، من عده من القربات استتيب فإن تاب وإلا قتل، وإن كان متأولاً جاهلاً بين له خطأ تأويله»[٢].

«وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره أن النبي ﷺ ذكر الذين يستحلون الحِرَ[٣] والحرير والخمر والمعازف على وجه الذم لهم».

والمشركون كان سماعهم كما ذكره تعالى في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً

---

(١) الفتاوى: جـ١١، ص٥٩٩-٦٠٠.

(٢) المرجع السابق: جـ١١، ص٢٩٩-٢٩٨، جـ١١، ص٥٣٤-٥٣٥.

(٣) الحر: يقصد أنهم يستبيحون الزنا.

وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال:٣٥].

قال السلف: المكاء الصفير، والتصدية: التصفيق باليد، إذ كان المشركون يجتمعون في المسجد الحرام، ويصفقون ويصوتون يتخذون من ذلك عبادة وصلاة، فذمهم الله على ذلك، وجعل ذلك من الباطل الذي نهى عنه»(١).

ونقل القرطبي عن الإمام الطرسوسي أنه سُئل عن قوم في مكان يقرءون شيئاً من القرآن ثم ينشد لهم منشد شيئاً من الشعر، فيرقصون ويطربون ويضربون بالدف والشبابة، هل الحضور معهم حرام أم لا؟

فأجاب بأن هذا ضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأما الرقص والتواجد، فأول من أحدثه أصحاب السامري، لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار، قاموا يرقصون حوله ويتواجدون، وهو - أي الرقص - دين الكفار وعباد العجل.

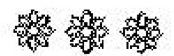
وإنما كان مجلس النبي ﷺ مع أصحابه، كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار.. فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم، ولا أن يعينهم على باطلهم(٢).

وقال ابن القيم رحمه الله عن هؤلاء المتصوفة: «فلو رأيتهم عند

(١) الفتاوى: ابن تيمية، جـ٣، ص٣٢٧.

(٢) الإبداع في مضار الابتداع: الشيخ علي بن محفوظ، توزيع دار الإصلاح، الدمام، ١٩٥٦م، طبعة خامسة، ص٣٢٢.

ذياك السماع، فتمايلوا تمايل النشوان، وتكسروا في حركاتهم ورقصهم، أرأيت تكسر المخانيث والنسوان؟!... فيا شماتة أعداء الإسلام بالذين يزعمون أنهم خواص الإسلام، قضوا حياتهم لذة وطرباً، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً، مزامير الشيطان أحب إليهم من سماع القرآن»(١).



(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: جـ١، ص٢٢٤، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.

٤- التواكل والتباطل:

لقد تطرف المتصوفة في مفهوم التوكل على الله، وفهموه فهماً خاطئاً فقطعوا الأخذ بالأسباب، وتركوا التحرز والاحتياط، وفسروا التوكل بغير معناه الشرعي، وخالفوا بذلك الكتاب والسنة.

فالتوكل عند المتصوفة صار يفسر تفسيراً عجيباً، وطبق في حياة القوم تطبيقاً غريباً.

وها هو أحد كبار الصوفية يشرح معنى التوكل عندهم فيكتب «قال الحسن أخو سنان: حججت أربع عشرة حجة حافياً متوكلاً، وكان يدخل في رجلي الشوك، فلا أخرجه، لئلا ينقص توكلي» «وقيل من ادعى التوكل ثم شبع فقد حمل زاداً». «وجاء جماعة من الشام إلى بشر الحافي، فطلبوا منه أن يحج معهم فقال لهم: نعم ولكن بثلاثة شروط: أن لا نحمل معنا شيئاً، ولا نسأل أحداً شيئاً، ولا نقبل من أحد شيئاً.. فلما اعتذروا عن بعض هذه الشروط قال: خرجتم تحجون متوكلين على زاد الحجاج؟!»[١]

«وحكي أن أحد مشايخ النقشبندية «وهو الشيخ حبيب الله جان» كان يسافر مع أصحابه بغير زاد ولا راحلة، فكانوا إذا نزلوا منزلاً، تأتيهم الموائد من الغيب»[٢].

---

(١) جامع الأصول في الأولياء: الكمشخانوي، ص٢٤٣. عن دراسات في التصوف: ص٥٣.

(٢) جامع كرامات الأولياء: جـ١، ص٣٨٩.

إن هذا النوع من التوكل كاف لهدم المجتمعات، ونشر الفقر بينها وقد يؤدي إلى هلاك أهلها، وهو مخالف لسنة رسول الله ﷺ.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رجل «يا رسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال ﷺ اعقلها وتوكل»[(١)].

وقد كان رسول الله ﷺ يدعو لبعض أصحابه بكثرة المال. فقد دعا لأنس بن مالك فقال: «اللهم أكثر ماله وولده» فلو كان الفقر مفضلاً لذاته، لما دعا رسول الله ﷺ لصحابي جليل بهذا الدعاء[(٢)].

* ذم التكسب[(٣)]:

يترك المتصوفة التكسب عادة، ويرونه من المنغصات، بل من المنكرات والمحرمات، ويأمرون بالتسول والاستجداء، أو الكسل والخمول.

وكل ذلك منافٍ لسنة رسول الله ﷺ وسنة الخلفاء المهديين من بعده.

قال ﷺ: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وأن نبي الله داود عليه السلام، كان يأكل من عمل يده»[(٤)].

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه البخاري: جـ٧، ص١٦١-١٦٢، باب الدعاء بكثرة المال والولد. ومسلم: برقم (٢٨٤٠).

(٣) انظر: دراسات في التصوف: إحسان إلهي ظهير، ص٣٧-٤٠.

(٤) رواه البخاري: رقم (١١٨).

إلا أن ابن عجيبة الحسني يقول: «التصوف بني على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التدبير والاختيار، والصوفي الصادق: علامته أن يفتقر بعد الغنى، ويذل بعد العز»[١] إن هذا مخالف لهديه ﷺ، ولما كان عليه أصحابه من بعده..

«وعن عطاء بن السائب قال: لما استخلف أبو بكر ﷺ، أصبح غادياً إلى السوق، وعلى رقبته أثواب يتجر بها، فلقيه عمر وأبو عبيدة فقالا: أين تريد؟ فقال: السوق. قالا: تصنع ماذا؟ وقد وليت أمور المسلمين؟ قال فمن أين أطعم عيالي؟ فنهياه عن مزاولة التجارة، لأنه تولى أمر المسلمين، وفرضوا له في كل سنة ستة آلاف درهم»[٢].

قال ابن الجوزي عقب هذه القصة: «لو قال رجل للصوفية من أين أطعم عيالي لقالوا: لقد أشركت، ولو سئلوا عمن يخرج إلى التجارة لقالوا: ليس بمتوكل ولا موقن، وكل هذا لجهلهم بمعنى التوكل واليقين»[٣].

فالتوكل ثمرة الإيمان بالقضاء والقدر ونتيجته، ولذلك فهو

---

(١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم: ابن عجيبة الحسني، ص٤، طبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٨٢م.

(٢) انظر: تاريخ الطبري: جـ٣، ص٥٥٤. طبقات ابن سعد: جـ٣، ص١٨٤. تلبيس إبليس: ص٢٨٢.

(٣) تلبيس إبليس: ص٢٨٢.

عقيدة تقترن بالعمل... قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾

[آل عمران:١٥٩].

إلا أن الصوفية يرون أن التوكل يتعارض مع العمل، فهو درجة يلتزم بها من يستطيعها منهم، بالطريقة السلبية عندهم.[١]

«رُوي عن أصحاب أبي تراب النخشبي أنه نظر إلى صوفي مد يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام فقال له: لا يصلح لك التصوف، الزم السوق» «وقال بعضهم: إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع، فألزموه بالسوق ومروه بالعمل والكسب».[٢]

فمن ترك العمل إطلاقاً، فإنه لم يفهم التوكل على وجهه الصحيح وذلك من التواكل المذموم، الذي يوجد البطالة، وينتج المتسكعين في الشوارع، أو التكايا والزوايا.

وكان من ثمرات هذا التوكل تخلف المجتمعات الإسلامية في القرون الأخيرة.[٣]

فهذا الشيخ عبد الله الدهلوي يتحدث عن نفسه قائلاً: «كان لي

---

(١)موقف الإمام ابن تيمية من الصوفية: د. أحمد البناني، ص١٢٥-١٢٦.

(٢)الرسالة القشيرية: القشيري، ص١٣٤.

(٣)نظر: الأحوال الدينية عند المسلمين: ص٢٨٣-٢٨٥، علي بن بخيت الزهراني.

جهة تعيّش فتركتها، فاشتدت عرى الفاقة عليّ، فاعتصمت بالتوكل! واتخذته سجية، ولم يكن عندي يومئذ غير خلق حصير أفترشها، وبلغ بي الضعف أقصاه، فلفرط ما نالني أغلقت باب حجرتي، وقلت هذا قبري، حتى يأذن الله بالفتح، أو بأمر من عنده، فما لبثت أن فتح الله على يد من أعرفه، فمكث في زاوية القناعة خمسين سنة»[١].

لقد ترك هذا الصوفي مصدر الرزق الوحيد الذي كان يتعيش منه واعتكف في حجرته واشتدت فاقته، فاعتصم بالتواكل، فلم يسعفه حتى أيقن بالهلكة من الجوع، ومع ذلك لم يفكر في الخروج مما هو فيه اعتقاداً أن ذلك منه طعن في التوكل على الله... وقد كاد يهلك لولا أن منّ الله عليه بالفتح، وهو عبارة عن أحد المتصدقين[٢].

لقد أدت تلك النظرة المنحرفة إلى احترام البطالة، وإباحة التسول، وتحقير ما تنطوي عليه الحياة من لذات، وإغراء الناس بتكليف الحزن والسعي إلى مواطن الذل.. والقناعة بالتافه من شئون العيش والاستهتار بالمال.. وأباحوا التسول قائلين: «إن الشحاذين الذين يطوفون بالأبواب يحملون عن المحسنين ذنوبهم، فإن هدية الله

---

(١) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر: جـ٢، ص٩٣٠، عبد الرزاق البيطار، تحقيق محمد بهجت البيطار، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٣٨٠هـ.

(٢) الأحوال الدينية عند المسلمين: ص٢٨٣، بتصرف يسير.

للمؤمن وقوف السائل على بابه»[1].

لقد أفسد التواكل كثيراً من عقيدة القضاء والقدر، وحولها من عقيدة إيجابية دافعة إلى عقيدة سلبية مخذلة، وإلى الرضا السلبي بالواقع، وعدم محاولة التغيير»[2].

وقد استغل نابليون بونابرت تلك الفكرة المنحرفة عن القضاء والقدر لما احتلت جيوشه الصليبية أرض مصر، فكان يصدر منشوراته بتذكير المسلمين بأن ما وقع لهم من الاحتلال والأسر كان بقدر من الله، فمن حاول الاعتراض على ما وقع فكأنه يعترض على القضاء والقدر[3].

وبذلك يحاول المتصوفة مخالفة واقع هذا الدين، ومصادمة نصوصه الواضحة في انحرافات كثيرة، ساهمت في تخلف هذه المجتمعات، وأن تترك قيادة ركب الحضارة لغيرها من الأمم الضالة، بعد أن كانت خيراً وبناءً وإعماراً للبشرية كلها، يوم أن كانت تسير على هدي هذا الدين، وتستنير بنوره الوهاج.

---

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني: ص٢١١، د. توفيق الطويل، مطبعة الاعتماد، مصر.

(٢) واقعنا المعاصر: محمد قطب، ص١٤٤.

(٣) عجائب الآثار في التراجم والأخبار: الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، جـ٢، ص٢٣٩، دار الفارس، بيروت.

٥- المتصوفة والجهاد في سبيل الله:

إن التربية الصوفية على الدعة في التكايا والزوايا، مع سماع الأناشيد والأشعار وفهم مغلوط (عند كثير منهم) لمفهوم القدر، وأن إرادة الله نافذة ولا مجال لدفع العدو بالجهاد.. كل ذلك أبعد المتصوفة عن الجهاد، بل جعل أكثرهم يوالي الأعداء أو ينزوي بعيداً عن أحداث الأمة ونكباتها.

«ولقد أصبحت الصوفية جبرية مرجئة تُربِّتُ على أكتاف النائمين، فيستولي اليأس والقنوط على الحياة... هذه النظرة السلبية كانت خير عون للمستعمر.. الذي غذّى الصوفية وأنفق على مشاهدها وزواياها الكثير من أجل قتل الحيوية، ونفسية الجهاد عند المسلمين...»[1].

وها هو شيخ المتصوفة الكبير الإمام محمد الغزالي، الذي عاش في القرن الخامس الهجري، وهو العصر الذي غزا فيه الصليبيون والتتار بلاد المسلمين، واحتلوا كثيراً منها، ثم ذبحوا الآلاف من أهلها. لم يذكر الجهاد في سبيل الله في كتابه «إحياء علوم الدين» ولم يتطرق إليه أبداً، بل كان مجاوراً في بيت المقدس تارةً ومعتكفاً في زاويته في الجامع الأموي تارةً أخرى، وكأنه في كوكب آخر، لا يعيش بين المسلمين.

فإذا كان هذا هو موقف كبير المتصوفة في عصره، فلا غرابة أن

---

(١) أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم في شبه القارة الهندية: ص٢٣٥.

يكون موقف الصوفية من الجهاد في جملته موقفاً سلبياً، بل موقفاً معادياً أحياناً.(١)

حتى صارت قراءة أحاديث البخاري للبركة ورفع النازلات، ودفع غوائل الحروب.

«وقد كان سلاطين المسلمين وملوكهم يرسلون إلى العلماء في زمن الحروب ليقرؤوا لهم صحيح البخاري، ويذكر الجبرتي أن السلطان العثماني (في سنة ١٢٠٢هـ) أرسل أموالاً لتفرق على طلبة العلم في الأزهر حتى يقرؤوا له صحيح البخاري ويدعوا له بالنصر».

«ويذكر أيضاً: أنه حين قدم الفرنسيون إلى مصر، وقبل دخولهم القاهرة، كان العلماء يجتمعون بالأزهر كل يوم ويقرؤون البخاري وغيره من الدعوات. وكذلك كان يفعل فقراء الأحمدية والرفاعية والقادرية والسعدية وغيرهم من الطوائف.. ويعملون له مجالس في الأزهر.. ويذكرون في أذكارهم الاسم اللطيف وغيره من الأسماء»(٢)

«وقد خرج أرباب الأشاير بالطبول والزمور والأعلام والكاسات، وهم يضجون ويصيحون، أن العامة لما التحم القتال ضجوا بالصياح، ورفعوا الأصوات قائلين: يا رب يا لطيف، يا رجال الله... إلا أن الهزيمة قد حلت خلال ثلاثة أرباع الساعة واحتلت فرنسا

---

(١) الأحوال الدينية عند المسلمين: علي بن بخيت الزهراني، ص٣٢٨.

(٢) عجائب الآثار: الجبرتي، جـ٢، ص٥٣.

القاهرة»[١].

«ولم يكن لمثل هذه الجموع الفوضوية التي كانت غارقة في البدع والخرافات، أن تقاوم الجيش الفرنسي في قوته وتدريبه، وكان الأولى بهؤلاء الطرقية وغيرهم أن يلقوا بطبولهم ومزاميرهم، وأن يحملوا السلاح ليقاتلوا الفرنسيين بدلاً من صخبهم وصياحهم بأذكارهم المبتدعة، كما كان الأولى بعلماء الأزهر الذين عكفوا على قراءة صحيح البخاري لحصول النصر، أن ينظروا ما بين دفتي صحيح البخاري من أحاديث وسنن وسير ومغاز، فيقتدوا بما فيها، ويقوموا بواجبهم في نصح الأمة وقيادتها وتوعيتها، وحثها على الجهاد، ولكن ذلك لم يحدث على الإطلاق»[٢].

* لقد أغرق الفكر الصوفي الناس بالتعلق في الخوارق والكرامات:

حتى اعتمدوا عليها في جهاد الكافرين ومقاومة المعتدين..

«فحين احتل الفرنسيون مدينة «فاس» عام ١٣٣٠هـ عمد - أحمد الهبة ابن الشيخ مصطفى ماء العينين - إلى دعوة أهل سوس لبيعته، وصار يعدهم بانكسار العدو أمامهم لأول وهلة، وأن مدافع العدو لا تخرج إلا ماء!! ولا يصلهم منها شيء، وأن العفاريت تخدمه وتنصره، وترد عنه كيد الخائنين، وصارت الوفود تتوارد عليه ثم دخل

(١) المرجع السابق: جـ٢، ص١٨٥، ١٨٦.

(٢) الأحوال الدينية عند المسلمين: ص٢٣٢.

«مراكش» وبايعه الناس، ولما أحاط به الفرنسيون، فرّ هارباً بعد أن تكبدت جموعه خسائر فادحة في العتاد والأرواح»[١].

وفي العصر الحديث عندما اقتسمت فرنسا وبريطانيا أكبر بلاد المسلمين كانت أكثر فرق الصوفية غارقة في أذكارها، وكأن شيئاً لم يكن، بل يقام للمعتمد البريطاني لدى سورية «جنرال سبيرس» حلقة «ذكر» على طريقة المولوية، بدعوة من الشيخ هاشم العيطة، حيث أنشدت الأناشيد، وفتلت المولوية[٢] ثم خطب صاحب الدار باسمه واسم إخوانه، مثنياً على رئيس الجمهورية، والملك جورج السادس والمستر تشرشل والجنرال سبيرس، فأجاب الجنرال شاكراً»[٣].

وفي الجزائر كان الصوفية يحضرون اجتماعات جمعية العلماء لا خدمةً لغاياتها، ولكن عوناً لفرنسا والإدارة المحلية، ولكن الجمعية أخرجتهم منها، ولذلك كان الشيخ ابن باديس يحارب هذه الطرق الصوفية أثناء تفسيره للقرآن الكريم في الجامع الكبير في مدينة قسنطينة[٤].

---

(١) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام: جـ٢، ص٤٤٧. نقلاً عن المرجع السابق: ص٣١٨.

(٢) فتلت المولوية: أي رقصت وترنّحت.

(٣) يوميات الخليل: خليل مردم، ص٦٢، عن الصوفية: محمد العبدة، ص٩٣.

(٤) الصوفية: محمد العبدة، طارق عبد الحليم، ص٩٣.

* موقف الصوفية من الجهاد ومقاومة الاستعمار:(١)

ليست مواقف المتصوفة واحدة في هذا الشأن، ولكنها مواقف متباينة يسودها الاضطراب.

أ- فطائفة منهم أعلنت الجهاد وقاومت الاستعمار، ومن هذه الطائفة الأولى أتباع الطريقة السنوسية، الذين جاهدوا ضد إيطاليا في ليبيا.

ب- وطائفة أخرى نكصت عن الجهاد وانزوت على نفسها فرقاً وهرباً، ومن هؤلاء كثير من الطرق المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي.

جـ- وهنالك طائفة ثالثة قاومت المستعمر ردحاً من الزمن ولما لم تفلح في طرد المستعمر استسلمت للمستعمر، ولم تكتف بذلك، بل أبرمت معه المعاهدات، وأوضح من يمثلها هو الأمير عبد القادر الجزائري، الذي قاوم العدو الفرنسي في الجزائر سبعة عشر عاماً، إلا أنه استسلم أخيراً وسلم نفسه للفرنسيين، فنفوه إلى خارج البلاد، ثم أطلقوا سراحه، ورتبوا له مبلغاً من المال سنوياً، وزار باريس ثم استقرّ في دمشق، وحين انهزمت فرنسا (عام ١٩٨٧م) أظهر كمال الأسف إظهاراً للاعتراف بمصداقيتها، وحين قام ابنه (محيي الدين) بإعلان الجهاد ضد فرنسا مرة أخرى، تبرأ عبد القادر منه، وكان ذلك سبباً في انفضاض القبائل عنه وفشل حركته.(٢)

---

(١) الأحوال الدينية عند المسلمين: ص٣٢٧-٣٣١.

(٢) الأحوال الدينية عند المسلمين: ص٣٢٨.

د- أما الطائفة الرابعة: فقد والت المستعمر وقاتلت إخوانها في سبيله، ويمثلها كثير من زعماء الطريقة التيجانية.

وفي رسالة للمارشال «بوجو» أول حاكم فرنسي للجزائر إلى شيخ الطريقة التيجانية، ذات النفوذ الواسع جاء فيها: «أنه لولا موقف الطريقة التيجانية المتعاطف!! لكان استقرار الفرنسيين في البلاد المفتوحة حدثاً أصعب بكثير مما كان»[١].

وكان شيوخ الطرق الخونة يقومون بكتابة عرائض بتوقيعاتهم وتوقيعات أتباعهم، يملؤونها بالثناء والشكر لفرنسا، التي كانت تعتبرهم ممثلين للشعب، ولا غرابة بعد ذلك أن يقول الحاكم الفرنسي في الجزائر: إن الحكومة الفرنسية تعظم زاوية من زوايا الطرق أكثر من تعظيمها لثكنة جنودها وقوادها، وأن الذي يحارب الطرق إنما يحارب فرنسا!![٢]

وقد سجلت مجلة الفتح «المجلد السادس» قصة صاحب السجادة الكبرى، وهو محمد الكبير رئيس الطريقة التيجانية والخطاب الذي ألقاه بين يدي الكولونيل «سيكوني» الفرنسي، وصف فيها فرنسا المستعمرة بأنها أم الوطن الكبرى، وقال: إن من الواجب علينا إعانة فرنسا حبيبة قلوبنا مادياً وأدبياً وسياسياً.. وقال: إن سيدي أحمد حمل

---

(١) التيجانية: علي بن محمد الدخيل الله، ص٦١، دار طيبة، الرياض.

(٢) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا: أنور الجندي، (ص٥١، ٥٢)، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٥هـ.

تشكرات الجزائريين، وبرهن على ارتباطه بفرنسا، فتزوج «أوليلي بيكار» وهو أول مسلم تزوج بأجنبية.

وكانت هذه المرأة قد أصدرت كتاباً أسمته «أميرة الرمال» تعني نفسها، ملأته بالمطاعن على الطريقة التيجانية وعلى مسلمي الجزائر، وذكرت أن (أحمد التيجاني) قد تزوجها وأجرى الطقوس الكردينال «لافيجري» على حسب الطقوس المسيحية.

وبقيت أورلي على دينها ومذهبها الكاثوليكي، ولما توفي عنها زوجها، خلفه عليها، وعلى السجادة التيجانية أخوه «علي» فأطلق عليها لقب (زوجة السيدين).(١)

وقد كافأتها السلطات الفرنسية لقاء خدماتها بوسام جوقة الشرق وقالت عنها: إن هذه السيدة قد أدارت الزاوية التيجانية إدارة حسنة، كما تحب فرنسا، وساقت إلينا جنوداً من أحباب هذه الطريقة ومريديها، يجاهدون في سبيل فرنسا كأنهم بنيان مرصوص.(٢)

إن هذه المواقف المتخاذلة من الجهاد، بل والتآمر مع العدو ضد المواطنين والمجاهدين، لهو وصمة عار في سجل كثير من الحركات المتصوفة، ودليل على بعدها عن صفاء عقيدتها، وتعاليم شرعها الحنيف.

---

(١) التيجانية: علي بن محمد الدخيل الله، ص٦١.

(٢) المرجع السابق نفسه.

٦- أسلوب التربية عند المتصوفة:

للصوفيين عالمهم الخاص، فيه يسبحون ويهيمون، وقد دربوا مريديهم على أفكارهم وبدعتهم، مع إلحاح على الطاعة، بل وإلغاء للمنطق والعقل، لأن المتصوفة لا يجيزون الاعتراض على مشايخهم ويقولون: «من قال لأستاذه: لِمَ؟ لا يفلح لأن الشيخ في أهله كالنبي في أمته»[(١)].

* ومن مخاطر الصوفية أنها فصلت بين الدين والدنيا، بين الآخرة والحياة الدنيا «فقد اتّكؤوا على الآيات التي وردت في ذمّ الدنيا، والأحاديث التي وردت في ذمها، واتّكؤوا على حال الزهاد وأخبارهم، واعتبروا أنه لا سبيل إلى درء المعاصي إلا باحتقار الدنيا وازدرائها، .. لكن هذا شيء واعتبار الدنيا والآخرة معسكرين متقابلين متضادين شيء آخر»[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص:٧٧].

* ومن ثم فقد وضع المتصوفة قواعد عامة لتربية مريديهم، وكلها تحوم حول الخضوع التام من المريد للشيخ، بحيث يتحول

---

(١) غيث المواهب العلية: التفزي الرندي، جـ١، ص١٩٧. وكشف المحجوب: الهجويري، ص٢٥٢.

(٢) مفاهيم ينبغي أن تصحح: الأستاذ محمد قطب، ص٣٠٦.

التلميذ المسكين إلى آلة جوفاء تردد ما يقال لها بلا تفكير ولا شخصية مستقلة، ومن ثم أمروهم بلبس معين، ومشية معينة، وطريقة معينة وشيخ معين.[١]

* ويؤكد الصوفية على وجوب اتّباع المريد لشيخ معين، وتكون إرشاداته وتعاليمه هي أهم ما يجب أن ينفذه المريد.

يقول القشيري: «لو أن رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام مؤدب»[٢].

ويقول أبو يزيد البسطامي: «من لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان» ويقول القشيري كذلك: «فمن رده قلب شيخ من الشيوخ، فهو الشقي المحروم».

ويؤكد السهروردي هذه التربية الذليلة حين يقول: «وهكذا أدب المريد مع الشيخ، أن يكون مسلوبَ الاختيار، لا يتصرف في نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره»[٣].

وقال بعضهم في ذلك:[٤]

---

(١) الصوفية: الأستاذ محمد العبدة، ص٧٨.

(٢) الرسالة القشيرية في علم التصوف: عبد الكريم القشيري، ص٤٤، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٧٢م.

(٣) عوارف المعارف: عبد القادر السهروردي، ص٤٠٣، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٦م.

(٤) تنوير القلوب: ص٥٢٩، نقلاً عن النقشبندية: ص٧٩، عبد الرحمن دمشقية.

وكن عنده كالميت عند مغسل يقلبه ما شاء وهو مطاوع
ولا تعترض فيما جهلت من أمره عليه فإن الاعتراض تنازع
وسلم له فيما تراه ولو يكن على غير مشروع فثم مخادع

* ومن أقوالهم وقواعدهم في ذلك: أن المريد لا ينبغي له الكلام إلا بما شاهده وعاينه، والصمت عليه واجب، والفكر عليه حرام، والنظر عليه في الأدلة محظور.. والأولى بالشيخ إذا رأى المريد يجنح إلى استعمال عقله في النظريات، ولا يرجع إلى رأيه فيما يدل عليه، فليطرده من منزله»[(١)].

* لقد خالف القوم الكتاب والسنة في هذه التربية، وأدت هذه الطرق إلى الغلو في المشايخ.

من ذلك مثلاً أن الشيخ نجم الدين، كان يستحي أن يصلي باتجاه القبلة وخلفه «القطب الشيخ أبو العباس المرسي» فأدار وجهه باتجاه القطب!! ولكن أبا العباس كان متواضعاً فقال له: أنا لا أرضى خلاف السنة[(٢)].

وعلم السلوك في الإسلام سهل ميسور، يمكن استقاؤه مباشرة من الكتاب والسنة، فلا رهبانية ولا طقوس في الدين ولله الحمد.

---

(١) الأمر المحكم المربوط فيما يلزم أهل طريق الله من الشروط: ابن عربي، المنشور مع ذخائر الأعلاق، ص٢٦٩-٢٧٠، ط. مطبعة السعادة، القاهرة.

(٢) لطائف المنن: ابن عطاء الله السكندري، ص٧٧.

«وجميع الصحابة رضي الله عنهم، كانوا يعلمون السلوك بدلالة الكتاب والسنة، لا يحتاجون في ذلك إلى فقهاء الصحابة، ومع هذا لم يحصل بينهم نزاع في ذلك، كما تنازعوا في بعض مسائل الفقه» «أما ما ظهر من حاجة بعض العباد والزهاد إلى تقليد شيخ معين في السلوك، فسببه ما حصل لهم من إعراض عن طلب العلم النبوي الصافي الذي يعرف به طريق الله ورسوله».[1]

«فأصحاب رسول الله ﷺ، لم يربوا هذه التربية الخانعة، ولكنهم تربوا تربية القيادة والرجولة، فكان أحدهم يسأل رسول الله ﷺ أوحي هذا أم هو الرأي والمشورة؟ فإن كان ذلك الرأي والمشورة أدلى برأيه وكان رسول الله يستمع إليهم، ويناقشهم وجوه الرأي ولا يقول لهم: كيف تعترضون عليّ، وأنا سيد الخلق ورسول من رب العالمين؟

ومع حبهم الشديد لرسول الله ﷺ، كانوا لا يقومون له، ولا يقبلون يديه، كلما دخل، وذلك لمعرفتهم أنه يكره المبالغة في تعظيم البشر.[2]

وأين هؤلاء المتصوفة من ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟! أين هم من قوله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

فمن آداب المريد مع شيخه ألا يعترض عليه فيما فعله، ولو كان

---

(١) الفتاوى: ابن تيمية، جـ١٩، ص٢٧٣.

(٢) انظر: الصوفية: محمد العبدة، ص٨٠.

ظاهره حراماً[١].

إن تربية الأتباع، وعمليات غسل الأدمغة جعلت كثيراً من هؤلاء يسيرون كالقطعان البشرية، لا يفكرون فيما يقومون به، حتى لو خالف النصوص الشرعية.

«لهذا مفتي الحنفية - في بغداد - «الشيخ عبد الله بن صبغة الله بن إبراهيم الحيدري النقشبندي» يأمره شيخه الصوفي الشهير «خالد الشهرزوري» بحمل الماء على ظهره وتسبيله في أسواق بغداد وأزقتها، وسقي العطاش من حاضر وباد، فامتثل الأمر، وفعل ذلك مدة عشرين يوماً على التوالي، ثم أمره ببيع الماء من دون تسبيل، ففعل ذلك عشرة أيام... مع كونه من أجل العلماء وأفضل الفضلاء»[٢].

يقول محقق الكتاب الشيخ «محمد بهجت البيطار» معلقاً على ذلك: «أليس هذا من العجيب الغريب؟ أديب كبير، وشاعر في اللغات الثلاث: العربية والتركية والفارسية، ثم هو من أجل العلماء، يكلف بحمل الماء على ظهره، وسقي المارة في مدينة بغداد عشرين يوماً، وبيعه لمدة عشرة أيام، ولمن يترك نشر العلم والدين؟ للسقائين والحمالين؟ اللهم أرنا الحق حقاً»[٣].

إن هؤلاء المتصوفة درّبوا مريديهم أن يلغوا عقولهم، وأن يلغوا

---

(١) تنوير القلوب: ٥٢٨.

(٢) حلية البشر: ص١٠٢٥.

(٣) السابق: ص١٠٢٥.

العادات وترك الهيئات الحسنة، والوقوف في مواقف الذل والتسول...
ومن ذلك قصة الشيخ علي الدرقاوي[١] الذي كان مدرساً يعلم التلاميذ ومن ثم أمره شيخه «سعيد المعدري» أن يترك التدريس في المدرسة، وأن يدور في الأسواق ويتكفف الناس فيها. كان يمد يديه وهو يقول «أطعموني فإني جائع» أموت جوعاً، وقد لبس أسمالاً بالية، وتدلى وراء كتفه جراب مثقوب من أصله.. وكان يتبعه الصبيان والهمج والرعاع.. وكانت والدته آنذاك، يكاد الألم يمزق كبدها على ما حل بولدها وجاءوا بولدها، مقيداً فصنعت له أطايب الطعام، إلا أنه سرعان ما كان ينسحب إلى سطح الدار ويصرخ، ألا من يشبع جوعتي الملتهبة، ولو بقطعة من الخبز.. قالت والدته: ثم نبادر إلى إيوائه داخل البيت، ونحن نتقطع على ولدها العالم الذي صار مجنوناً يتخبط.. بسبب ذلك الرجل المعدري الذي أفسده، تقصد شيخه «سعيد المعدري» فماذا أفادت هذه التربية إلا التشرد والذل والسؤال، ثم العقوق والتمرّد على الوالدين، بما كان يصدره شيوخهم من أوامر قاسية وتعليمات منحرفة؟

- هذه خطوط عريضة في أسلوب التربية عند المتصوفة، ربت أتباعاً خاضعين، مسخت شخصياتهم، وانزووا في التكايا والزوايا يرددون أوراد شيوخهم، ويعارضون بها ما صح من سنة رسول الله ﷺ.

---

(١) كتاب المعسول: محمد مختار السنوسي، جـ١، ص٢٠٥، نقلاً عن الحياة الدينية عند المسلمين: علي بن بخيت الزهراني، ص٣٢٣-٣٢٤ بإيجاز.

حقيقة الداعية الصوفي المعاصر

(الجفري) - هداه الله -

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، ولا عدوان إلا على الظالمين:

أما بعد: فإن الداعية الصوفي(علي الجفري) من الأسماء التي بدأت تظهر بشكل كبير في الساحة الدعوية في هذا الوقت، وذلك من خلال الظهور عبر القنوات الفضائية والصحف والمجلات، فبعض القنوات الفضائية كما بلغني أصبحت تستضيفه على شاشاتها من خلال البرامج والمقابلات، وكذلك بعض الصحف والمجلات قامت بإجراء مقابلات معه، وله موقع على شبكة الانترنت ، هذا فضلاً عن أشرطته السمعية التي ينشرها أتباعه في عدة أماكن.

وقد سأل عنه الكثير من الإخوة . وأنا - بحمد الله- أملك شريطًا صرح فيه (علي الجفري) ببعض معتقداته التي لا أظنه يستطيع أن يتجرأ وينشرها علانية عبر الوسائل السابق ذكرها على الأقل حالياً !، لهذا رأيت من واجبي أن أقوم بنشر بعض المقاطع من ذلك الشريط، علماً أن الشريط سجل في مجلس خاص وليس عام !! ولم ينتشر إلا في الحدود الضيقة جداً عن طريق بعض أتباعه رغم أنه طلب من صاحب المجلس ألا ينشر الشريط !!

والغرض من نشر هذه المقاطع هو تحذير المسلمين من هذا الرجل، فقد اغتر به بعض الناس بسبب أسلوبه في الحديث والله المستعان:

١- استمع إليه وهو يقول إن القاعدة أن الرسول صلى الله عليه وسلم يغيث بروحه من يستغيث به، ويمكن أن يغيث أيضاً بجسده، كما أن بإمكان الرسول صلى الله عليه وسلم أن يغيث بروحه مليون شخص في نفس اللحظة !!

a http://www.geocities.com/abdullah_moslm/g١.

a http://www.geocities.com/abdullah_moslm/g٢.

٢- استمع له وهو يقول إنه لا يستغرب خروج روح الولي الميت لكي تنفع من يستغيث بها.

a http://www.geocities.com/abdullah_moslm/g٣.

٣- استمع له وهو يقول إن الأساس أن الأولياء الأموات يغيثون بأرواحهم من يستغيث بهم، ولا يمنع في اعتقاده أن يخرج جسد من قبره !

a http://www.geocities.com/abdullah_moslm/g٤.

٤- استمع له وهو يصرح بأن هناك من الأولياء من فوضهم الله في إدارة أمور الكون!! وأن عندهم إذن مسبق في التصرف في الكون!! وأن بإمكانهم الرزق والإحياء والإماتة !!

a http://www.geocities.com/abdullah_moslm/g٥.

٥- استمع له وهو يصرح بأنه يمكن للولي الميت أن يدعو للحي، وأن كرامات الأولياء لا حد لها إلا في مسألتين، وهما:

أ- أن ينزل عليه كتاب من الله.

ب - أن يوجد - أي يخلق - الولي طفلا من غير أب.

وأن مسألة خلق الطفل من غير أب مسألة خلافية بين العلماء - أي الصوفية ! - .

وأن الولي يمكن أن تخرج روحه من الروضة التي يتنعم فيها ليغيث من استغاث به.

a http://www.geocities.com/abdullah_moslm/g٦.

٦- استمع له وهو يصرح أن العلماء عنده اختلفوا في مسألة إمكانية أن يخلق الولي طفلا من غير أب، وأن السبب الذي جعل من يقول بامتناع ذلك هو التحرز عن الأنساب !! حتى لا تأتي امرأة

حامل من الزنا فتدعي أن أحد الأولياء خلق هذا الطفل في بطنها، وإلا فهم متفقون على ذلك – أي على إمكانية أن يخلق الولي طفلا من غير أب - !!

a http://www.geocities.com/abdullah_moslm/g٧.

٧- استمع له وهو يصرح بإمكانية رؤية الرسول ولكن بعين البصيرة ، وأن هناك من الأولياء من يجتمع بالرسول يقظة !

a http://www.geocities.com/abdullah_moslm/g٩.

٨- استمع له وهو يكذب على الشيخ عبد الرحمن دمشقية حفظه الله مؤلف كتاب «الرفاعية» حيث يزعم أن أحد مشايخه ناقش الشيخ دمشقية حول أحمد الرفاعي وذكر له أن الإمام الذهبي أثنى عليه، وأن الشيخ دمشقية كان يجهل هذا الأمر، ولهذا ذمه في كتاب الرفاعية !! مع أن الشيخ عبد الرحمن دمشقية قد ذكر ترجمة أحمد الرفاعي رحمه الله من «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبي رحمه الله وبرأه مما يعتقده فيه أتباعه !

a http://www.geocities.com/abdullah_moslm/g١٠.

رد شبهاته :

وبعد عرض هذه المقاطع الصوتية لعلي الجفري أذكر بعض الأدلة التي فيها رد على معتقداته، فأقول وبالله التوفيق:

أولاً: ذكر بعض الأدلة التي فيها رد على من اثبت أن الأنبياء والأولياء يتصرفون في الكون:

(إن في سيرة وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ما يصدع بالحق ويهتك رداء الشك في هذا الأمر: لما اشتدت أذية المشركين للمسلمين بمكة واستفحل شرهم وتطاولهم حتى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رفع صوته ثم دعا عليهم: «اللهم عليك بقريش ... اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعقبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عقبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط» رواه البخاري ومسلم.

فترى أنه بعد أن ضاقت السبل، واستغلقت الأبواب، وانقطع الرجاء في هداية هؤلاء القوم لم يبق إلا التفكير في استئصال شأفتهم، ولما لم يكن هناك سبيل إلى ذلك إلا سبيل الابتهال إلى المولى عز وجل ، فقد توجه عليه الصلاة والسلام بهذا الدعاء الذي لم تتحقق استجابته إلا بعد حين وتحديداً يوم بدر، إذ يقول ابن مسعود راوي الحديث: (فوالذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر).

ولا يخفى على عاقل أنه صلى الله عليه وآله وسلم لو كان يتصرف

في الكون لاكتفى بقوله لهم: موتوا فيموتون.

وفي يوم بدر ذاته عندما واجه المسلمين خطب مدلهم وخطر جسيم عندما قابلهم جيش قريش ورأوا تفوقه عدداً وعُدداً لم يكن منه صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن استقبل القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» .

فما زال يهتف بربه ماداً يديه، مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه. وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال:٩).

رواه مسلم.

هذا نص آخر صريح في أنه عليه الصلاة والسلام كان أمره غاية في العبودية والخضوع والتذلل لربه عز وجل، ولم يكن من شأنه أن يخرج عن ذلك بحال من الأحوال. بل ثبت بالدليل أن الله سبحانه لم يكن يحقق كل ما يدعوه به عليه الصلاة والسلام.

عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة. سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق

فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» رواه مسلم) .
انتهى نقلاً من «تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي» للشيخ محمد أحمد لوح حفظه الله (١/ ١٣٧-١٣٩).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا معشر قريش – أو كلمة نحوها – اشتروا أنفسكم ... لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف! لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً». رواه البخاري ومسلم.

قال الشيخ عبد الرحمن دمشقية حفظه الله في «موسوعة أهل السنة» (١/ ٣٨):

(فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصرح بأنه لا يغني عن أحد من الله شيئاً، ولا حتى لابنته فاطمة رضي الله عنها.

وإذا كان لا يملك شيئاً لفلذة كبده فاطمة رضي الله عنها وهو حي، أفيملكه لغيرها وهو ميت؟!) انتهى باختصار.

وهناك أدلة أخرى كثيرة تدل على هذا الأمر منها:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (الجن: ٢١).

وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا

أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(الإسراء: ٩٠-٩٤).

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ (هود: ٣١).

* رد بعض الشبه حول هذا الموضوع:

قد يستدل البعض على هذه العقيدة بمعجزات المسيح عليه السلام.

وقد رد الشيخ محمد أحمد لوح حفظه الله على هذه الشبهة في

كتابه «تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي» (١/ ١٥٧) حيث قال:

(هذا الاستدلال باطل ؛ لأن إحياء الموتى — بإذن الله — من خصوصيات المسيح، وليس لغيره من البشر لا من الأنبياء ولا غيرهم، ومما يؤيد هذه الخصوصية دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (البقرة: ٢٦٠). فإنه عليه السلام لو كان من شأنه إحياء الموتى لما دعا بمثل هذا الدعاء، وإذا انتفى كون إحياء الموتى من معجزات نبي آخر غير المسيح قوي انتفاؤه عمن دون الأنبياء من الأولياء والصالحين) اهـ.

وقد يستدل البعض أيضاً بقول الله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤)

والجواب:

(أننا نثبت للمخلوق خلقاً، لكنه ليس كخلق الله تعالى. فخلق الله جل وعلا إيجاد من العدم. وخلق المخلوق لا يكون إلا بالتغيير والتحويل والتصرف في شيء خلقه الله تعالى.

ومن ذلك ما جاء في «الصحيحين» أنه يقال للمصورين يوم القيامة: «أحيوا ما خلقتم». ومعلوم أن المصور لم يوجد شيئاً من العدم إنما حول الطين، أو الحجر إلى صورة إنسان أو طير — بدون روح —،

وحول بالتلوين الرقعة البيضاء إلى ملونة، والطين والحجر والمواد والورق كلهم من خلق الله تعالى) انتهى نقلاً من موقع الشبكة الإسلامية على شبكة المعلومات العالمية.

ذكر بعض الأدلة التي تثبت بقاء الأجساد في القبور:

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة» رواه البخاري ومسلم.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا على الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي» قالوا: يا رسول الله ! وكيف تعرض صلاتنا عليك، وقد أرمت ، قال: «إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء» رواه أبو داود والنسائي وغيرهما وصححه الألباني في «التوسل» (ص٦٤).

فهذا الحديث يدل بأن أجساد الأنبياء - عليهم السلام - لا تفارق قبورهم.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر. وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر».

ومن الأدلة على ذلك أيضاً ما ثبت في الحديث عن النبي صلى

الله عليه وسلم «أن موسى عليه السلام نقل عظام يوسف عليه السلام لما خرج من مصر». رواه الحاكم وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم الحديث ٣١٣.

وقد أشار الألباني رحمه الله أن معنى قوله في الحديث «عظام يوسف» لا يعارض حديث: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» لأنه قد ثبت في حديث بسند جيد على شرط مسلم: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بدن، قال له تميم الداري رضي الله عنه: ألا أتخذ لك منبراً يا رسول الله، يجمع أو يحمل عظامك؟ قال: «بلى» فاتخذ له منبراً مرقاتين. رواه أبو داود. فدل هذا أنهم كانوا يطلقون العظام، ويريدون به البدن كله) انتهى نقلاً من «مصادر التلقي عند الصوفية» (٤١٩-٤٢٠) بتصرف.

ذكر بعض الأدلة التي تثبت أن أرواح الشهداء والصالحين تتنعم في الجنة وتتمنى الرجوع إلى الدنيا لفعل الخيرات ولكن تمنع من ذلك:

«عن طلحة بن خراش قال: سمعت جابراً يقول: لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: «يا جابر مالي أراك منكسراً»؟ فقلت: يا رسول الله استشهد أبي قتل يوم أحد، وترك عيالاً وديناً. فقال: «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» قال: قلت: بلى يا رسول الله. قال: «ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك وكلمه كفاحاً، فقال: يا عبدي تمن علي أعطك. قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية. قال الرب عز وجل: إنه سبق مني (أنهم إليها لا يرجعون)» رواه الترمذي

وحسنه، وابن ماجه، وابن أبي عاصم، والحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وحسنه أيضاً الألباني في «ظلال الجنة».

وهو حديث صريح في منع القول بوقوع الرجعة فضلاً عن أن تكون عقيدة إسلامية يجب اعتقادها. انتهى نقلاً من «تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي» (٢/ ٣٨-٣٩).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم سألوه عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران:١٦٩).

فقال صلى الله عليه وسلم: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم إطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا» أخرجه مسلم.

قال الشيخ سمير المالكي في «كشف شبهات المخالفين/ القسم الثاني من الرد على كتابي «شفاء الفؤاد» و«الذخائر» (٩٤-٩٥) بتصرف:

يستفاد من هذا الحديث:

١ – أن قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «أرواحهم في جوف طير» يدل على أنها ليست في الأجساد المدفونة في الأرض.

٢ – أنهم سألوا ربهم أن ترد أرواحهم في أجسادهم، وهذا صريح في أنها قد فارقتها بالموت.

٣ – أنهم تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليقاتلوا في سبيل الله لما رأوا من عظيم ثواب الشهادة، فمنعوا من ذلك، فقد انقطع التكليف وانقطع العمل وما بقي إلا الجزاء، فإذا لم يملكوا هم لأنفسهم نفعاً ولا حياة ولا تصرفاً، مع كرامتهم عند ربهم ووجاهتهم عنده، فكيف يملكون لغيرهم من الخلق جلب منفعة أو دفع مضرة؟!) اهـ.

عن كعب بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه» رواه مالك وأحمد والنسائي.

والنسمة هنا أي الروح، يدل عليه قوله: «حتى يرجعه الله إلى جسده».

فهذا يدل على أن الروح تعاد إلى الجسد يوم القيامة، فكيف يقال إن الأنبياء والصالحين يخرجون من قبورهم بأجسادهم لإنقاذ من يستغيث بهم؟!

ذكر بعض الأدلة التي تثبت عدم شعور الأحياء بحياة الشهداء البرزخية:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة:١٥٤).

فهذا يدل على أننا لا نشعر بحياة الشهداء البرزخية.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ عنا إخواننا أنا أحياء في الجنة نرزق لئلا ينكلوا عن الحرب ولا يزهدوا في الجهاد؟ قال: فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾» رواه أحمد وأبو داود.

فهذا يدل على أن الصحابة لم يكونوا يشعرون بحياة الشهداء وأن الشهداء تمنوا من يبلغ إخوانهم ما هم فيه من نعيم.

عن طلحة بن خراش قال: سمعت جابراً يقول: لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: «يا جابر مالي أراك منكسراً»؟ فقلت: يا رسول الله استشهد أبي يوم أحد، وترك عيالاً وديناً. فقال: «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» قال: قلت: بلى يا رسول الله. قال: «ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك وكلمه كفاحاً، فقال: يا عبدي تمن علي أعطك. قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية. قال الرب

عز وجل:إنه سبق مني (أنهم إليها لا يرجعون)» رواه الترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن أبي عاصم، والحاكم وقال:صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي . وحسنه أيضاً الألباني في «ظلال الجنة».

وهو حديث صريح في منع القول بوقوع الرجعة فضلاً عن أن تكون عقيدة إسلامية يجب اعتقادها. انتهى نقلاً من «تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي» (٢/ ٣٨-٣٩).

ويستفاد منه أيضاً أن جابرًا رضي الله عنه لم يكن يعلم عن النعيم الذي كان يتنعم به والده رضي الله عنه.

ذكر بعض الأدلة التي تثبت عدم إمكانية رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة:

من الأدلة على ذلك أن أموراً عظيمة وقعت لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أفضل الأمة بعد نبيها كانوا في حاجة ماسة إلى وجوده بين أظهرهم ، ولم يظهر لهم، نذكر منها:

- أنه وقع خلاف بين الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسبب الخلافة، فكيف لم يظهر صلى الله عليه وسلم لأصحابه ويفصل النزاع بينهم؟!

- أنه وقع اختلاف بين أبي بكر الصديق و فاطمة رضي الله عنهما على ميراث أبيها ، فاحتجت فاطمة عليه بأنه إذا مات هو إنما يرثه أبناؤه فلماذا يمنعها من ميراث أبيها؟ فأجابها أبو بكر بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال:«نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركنا صدقة»

رواه البخاري وغيره. فلماذا لم يظهر صلى الله عليه وسلم يقظة لحل هذا الاختلاف ؟!

- أنه وقع اختلاف بين طلحة والزبير وعائشة من جهة وعلي بن أبي طالب وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين من جهة أخرى، أدى إلى وقوع معركة الجمل، فقتل فيها خلق كثير من الصحابة والتابعين، فلماذا لم يظهر لهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى يحقن هذه الدماء؟

- أنه وقع خلاف بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع الخوارج، وقد سفكت فيه دماء كثيرة، ولو ظهر صلى الله عليه وسلم لرئيس الخوارج وأمره بطاعة إمامه لحقن تلك الدماء.

- أنه وقع اختلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما أدى إلى وقوع حرب صفين ؛ حيث قتل خلق كثير جداً ؛ منهم عمار بن ياسر. فلماذا لم يظهر النبي صلى الله عليه وسلم حتى تجتمع كلمة المسلمين وتحقن دمائهم ؟!

- أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على جلالة قدره وعظيم شأنه كان يُظهر الحزن على عدم معرفته ببعض المسائل الفقهية فيقول: «ثلاث وددت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفارقنا حتى يعهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه: الجد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا» . متفق عليه.

فلو كان صلى الله عليه وسلم يظهر لأحد بعد موته لظهر لعمر الفاروق وقال له: لا تحزن حكمها كذا وكذا.

انتهى نقلاً من «تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي» (٢/ ٤٧- ٤٩) باختصار.

أما بالنسبة لاستدلال الصوفية بالحديث الذي رواه البخاري رحمه الله في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة» على إمكانية رؤية النبي صلى الله عليه وسم يقظة، فقد أجاب عنه الشيخ محمد أحمد لوح حفظه الله في «تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي» (٢/ ٣٩-٥٢) فقال:

«أما رواية:» من رآني في المنام فسيراني في اليقظة «لابد من إلقاء ضوء كاشف على الحديث رواية ودراية حتى نعرف قدر هذا اللفظ الذي استدل به أولئك على إمكانية رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة:

١- أما الحديث فقد رواه اثنا عشر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يزيد، مما يدل على شيوعه واستفاضته.

٢- أن ثمانية من أئمة الحديث المصنفين اهتموا بهذا الحديث فأخرجوه في كتبهم ؛ مما يؤكد اهتمامهم به وفهمهم لمدلوله. ومع ذلك لم يبوب له أحد منهم بقوله مثلاً: باب في إمكان رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة، ولو فهموا منه ذلك لبوبوا به أو بعضهم على الأقل؛ لأنه أعظم من كل ما ترجموا به تلك الأبواب.

٣- أن المواضع التي أخرجوا فيها هذا الحديث بلغ (٤٤) موضعاً، ومع كثرة هذه المواضع لم يرد في أي موضع لفظ «فسيراني في

اليقظة» بالجزم إلا في إحدى روايات البخاري عن أبي هريرة.

أما بقية الروايات فألفاظها: «فقد رآني» أو «فقد رأى الحق» أو «فكأنما رآني في اليقظة» أو «فسيراني في اليقظة أو فكأنما رآني في اليقظة» بالشك.

وبالنظر في ألفاظ الحديث ورواياته نجد ملاحظات على لفظ «فسيراني في اليقظة» لا ريب أنها تقلل من قيمة الاستدلال بها وهذه الملاحظات هي:

أولاً: أن البخاري أخرج الحديث في ستة مواضع من صحيحة: ثلاثة منها من حديث أبي هريرة، وليس فيها لفظ: «فسيراني في اليقظة» إلا في موضع واحد.

ثانياً: أن كلا من مسلم (حديث رقم ٢٢٦٦)، وأبي داود (حديث رقم ٥٠٢٣)، و أحمد (٥/ ٣٠٦)، أخرجوا الحديث بإسناد البخاري الذي فيه اللفظ المذكور بلفظ «فسيراني في اليقظة». أو «لكأنما رآني في اليقظة» وهذا الشك من الراوي يدل على أن المحفوظ إنما هو لفظ «فكأنما رآني» أو «فقد رآني» لأن كلا منهما ورد في روايات كثيرة بالجزم وليس فيها شيء شك فيه الراوي. وعند الترجيح ينبغي تقديم رواية الجزم على رواية الشك.

ثالثاً: إذا علمنا أنه لم يرد عند مسلم ولا عند أبي داود غير رواية الشك أدركنا مدى تدليس السيوطي حين قال في «تنوير الحلك»: «وتمسكت بالحديث الصحيح الوارد في ذلك: أخرج البخاري ومسلم

وأبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي»؛ فأوهم أن مسلماً وأبا داود أخرجا الحديث برواية الجزم، وأغفل جميع روايات البخاري الأخرى التي خلت من هذا اللفظ!

رابعاً: ذكر الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٢/ ٤٠٠) أنه وقع عند الإسماعيلي في الطريق المذكورة «فقد رآني في اليقظة» بدل قوله: «فسيراني».

وهذه الأمور مجتمعة تفيد شذوذ هذا اللفظ؛ ولعل الحافظ ابن حجر أشار إلى ذلك ضمناً حين قال: «وشذ بعض الصالحين فزعم أنها تقع - يعني الرؤية - بعيني الرأس حقيقة».

ونقل عن المازري قوله: «إن كان المحفوظ «فكأنما رآني في اليقظة» فمعناه ظاهر».

هذا ما يتعلق بالحديث رواية، وإن تعجب فعجب استدلال هؤلاء بهذا اللفظ الشاذ على تقرير إمكان رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة ووقوعها مع اتفاقهم على: أن حديث الآحاد لا يحتج به في العقيدة!!

أما ما يتعلق به دراية فنقول: لو فرضنا أن هذا اللفظ «فسيراني» هو المحفوظ فإن العلماء المحققين لم يحملوه على المعنى الذي حمله عليه الصوفية.

قال النووي في شرحه (١٥/ ٢٦): «فيه أقوال: أحدها: أن يراد به

أهل عصره، ومعناه:أن من رآه في النوم ولم يكن هاجر يوفقه الله للهجرة ورؤيته صلى الله عليه وسلم في اليقظة عياناً.

وثانيها:أنه يرى تصديق تلك الرؤيا في اليقظة في الدار الآخرة؛ لأنه يراه في الآخرة جميع أمته.

وثالثها:أنه يراه في الآخرة رؤية خاصة في القرب منه وحصول شفاعته ونحو ذلك».

ونقل الحافظ ابن حجر هذه الأقوال بعدما ذكر القول بحمله على الرؤية بالعين المجردة وحكم على القائلين به بالشذوذ. انتهى كلام الشيخ محمد أحمد لوح باختصار.

وإليك أقوال بعض أهل العلم في هذا الموضوع نقلاً من كتاب «القول الفصل في حكم الاحتفال بمولد خير الرسل» للشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله:

١ - القاضي أبو بكر بن العربي: قال: «شذ بعض الصالحين فزعم أنها - أي رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته - تقع بعيني الرأس حقيقة»نقل ذلك عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري»(١٢/ ٣٨٤).

٢ - الإمام أبو العباس احمد بن عمر القرطبي في «المفهم لشرح صحيح مسلم» ذكر هذا القول وتعقبه بقوله: «وهذا يدرك فساده بأوائل العقول ويلزم عليه أن لا يراه أحد إلا على صورته التي مات عليها وأن يراه رائيان في آن واحد في مكانين وأن يحيا الآن ويخرج من

قبره ويمشي في الأسواق ويخاطب الناس ويخاطبوه، ويلزم من ذلك أن يخلو قبره من جسده ولا يبقى من قبره فيه شيء فيزار مجرد القبر ويسلم على غائب لأنه جائز أن يرى في الليل والنهار مع اتصال الأوقات على حقيقته في غير قبره.

وهذه جهالات لا يلتزم بها من له أدنى مسكة من عقل». وإلى كلام القرطبي هذا أشار الحافظ ابن حجر في (الفتح) بذكره اشتداد إنكار القرطبي على من قال: «من رآه في المنام فقد رأى حقيقته ثم يراها كذلك في اليقظة».

٣ - ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» (١٢/ ٣٨٥) أن ابن أبي جمرة نقل عن جماعة من المتصوفة أنهم رأوا النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ثم رأوه بعد ذلك في اليقظة، وسألوه عن أشياء كانوا منها متخوفين فأرشدهم إلى طريق تفريجها فجاء الأمر كذلك، ثم تعقب الحافظ ذلك بقوله: «وهذا مشكل جداً، ولو حمل على ظاهره لكان هؤلاء صحابة ولأمكن بقاء الصحبة إلى يوم القيامة، ويعكر عليه أن جمعاً جماً رأوه في المنام ثم لم يذكر واحد منهم أنه رآه في اليقظة وخبر الصادق لا يتخلف».

٤ - قال السخاوي في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة بعد موته: «لم يصل إلينا ذلك - أي ادعاء وقوعها - عن أحد من الصحابة ولا عمن بعدهم، وقد اشتد حزن فاطمة عليه صلى الله عليه وسلم حتى ماتت كمداً بعده بستة أشهر على الصحيح، وبيتها مجاور

لضريحه الشريف ، ولم تنقل عنها رؤيته في المدة التي تأخرتها عنه».

٥ - وقال ملا علي قاري في «جمع الوسائل شرح الشمائل للترمذي» (٢/ ٢٣٨): «إنه - أي ما ادعاه المتصوفة من رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة بعد موته - لو كان له حقيقة لكان يجب العمل بما سمعوه منه صلى الله عليه وسلم من أمر ونهي وإثبات ونفي ، ومن المعلوم أنه لا يجوز ذلك إجماعاً كما لا يجوز بما يقع حال المنام ، ولو كان الرائي من أكابر الأنام ، وقد صرح المازري وغيره بأن من رآه يأمر بقتل من يحرم قتله كان هذا من الصفات المتخيلة لا المرئية» انتهى كلام الملا علي قاري؛ وفيه فائدة أخرى هي حكايته الإجماع على عدم جواز العمل بما يدعى ممن يزعم أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة وأنه سمع منه أمرًا أو نهيًا أو إثباتًا أو نفيًا ، وفي حكايته الإجماع على ذلك الرد على قول الزرقاني في «شرح المواهب اللدنية» (٧/ ٢٩) ما نصه: «لو رآه يقظة - أي بعد موته صلى الله عليه وسلم - وأمره بشيء وجب عليه العمل به لنفسه ولا يعد صحابياً ، وينبغي أن يجب على من صدقه العمل به قاله شيخنا» !

٦ - قال الشيخ عبد الحي بن محمد اللكنوي رحمه الله في «الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة» (ص٤٦): «ومنها - أي من القصص المختلقة الموضوعة - ما يذكرونه من أن النبي صلى الله عليه وسلم يحضر بنفسه في مجالس وعظ مولده عند ذكر مولده، وبنوا عليه القيام عند ذكر المولد تعظيماً وإكراماً.

وهذا أيضا من الأباطيل لم يثبت ذلك بدليل، ومجرد الاحتمال والإمكان خارج عن حد البيان».

وقد تكلم عن هذه المسألة بكلام جيد الشيخ صادق بن محمد بن إبراهيم حفظه الله في كتابه «خصائص المصطفى صلى الله عليه وسلم بين الغلو والجفاء» (٢٠٧-٢١٨) ، وهناك رسالة خاصة في هذا الموضوع بعنوان «رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم يقظة ومناماً ضوابطها وشروطها» للشيخ الأمين الحاج محمد أحمد.

وأكتفي حالياً بهذه الردود المختصرة على بعض ما جاء في كلام الجفري، أما ما يتعلق بمسألة الاستغاثة فأحيل القارئ الكريم إلى كتاب «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

وكذلك رسالة «التوسل أنواعه وأحكامه» للشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله.

ثم إن قول الجفري بجواز الاستغاثة بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبالأولياء الموتى يدل على أنه يعتقد أن الأموات يسمعون ! والراجح في هذه المسألة هو: أن الأصل في الأموات أنهم لا يسمعون إلا ما ورد الدليل بخصوصه ؛ مثل سماعهم لقرع النعال بعد وضع الميت في قبره، وكذلك سماع قتلى بدر من المشركين قول الرسول صلى الله عليه وسلم ؛حيث أن الله أسمعهم صوت نبيه عليه الصلاة والسلام.

ومن أوضح الأدلة على عدم سماع الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره من الأموات كلام الأحياء قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن لله ملائكة سياحِين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام».

قال الشيخ الألباني رحمه الله في مقدمته لكتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» للعلامة الألوسي رحمه الله:

«ووجه الاستدلال به أنه صريح في أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يسمع سلام المسلمين عليه، إذ لو كان يسمعه بنفسه، لما كان بحاجة إلى من يبلغه إليه، كما هو ظاهر إن شاء الله. وإذا كان الأمر كذلك، فبالأولى أنه صلى الله عليه وسلم لا يسمع غير السلام من الكلام، وإذا كان كذلك فلأن لا يسمع السلام غيره من الموتى أولى وأحرى».

ومن أراد التفصيل في هذه المسألة فليرجع إلى كتاب الألوسي رحمه الله المشار إليه سابقاً.

وفي الختام أقول: قد يتعجب البعض من كلام الجفري الخطير السابق، ولكن إذا علم من هم مشايخ الجفري الذين تتلمذ عليهم لزال عنه العجب!

فالجفري قد صرح في بعض اللقاءات الصحفية معه أنه تتلمذ على يد عبد القادر السقاف وهو رجل من كبار الصوفية في هذا العصر، ومن مشايخ الجفري الذين صرح بالأخذ عنهم داعية الخرافة محمد بن علوي المالكي.

والمالكي لا يخفى حاله على كثير من الإخوة؛ وقد صرح في كتابه «مفاهيم يجب أن تصحح» بأن النبي صلى الله عليه وسلم: «حي الدارين، دائم العناية بأمته، متصرف بإذن الله في شؤونها، خبيرٌ بأحوالها...» !!

وقال أيضاً في نفس الكتاب: «ولا شك أن الأرواح لها من الانطلاق والحرية ما يمكنها من أن تجيب من يناديها، وتغيث من يستغيث بها، كالأحياء سواء بسواء، بل أشد وأعظم» !! وقد رد عليه فضيلة الشيخ صالح آل الشيخ - حفظه الله - في كتابه «هذه مفاهيمنا ، كما رد عليه الشيخ سمير المالكي- وهو أحد أقاربه- في كتابه»جلاء البصائر في الرد على كتابي «شفاء الفؤاد» و«الذخائر».

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

(كتب البحث : أبومعاذ السلفي – نقلا عن موقع «أنا المسلم» على الإنترنت).

حقيقة مسجد (الحسين) بمصر ..!

هذه مقتطفات من رسالة الدكتور محمد بن عبدالهادي الشيباني - حفظه الله - «مواقف المعارضة في خلافة يزيد بن معاوية» بين فيها بطلان المشهد الشهير الموجود في مصر ؛ والمسمى بـ (مسجد الحسين) ! ؛ وأثبتَ - بالأدلة العلمية والتاريخية - أنه مجرد أكذوبة رافضية من أيام الدولة العبيدية ؛ ثم صدقها بعض الجهال المنتسبين لأهل السنة . وقد سبقه إلى هذا العلماء المحققون ؛ وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في رسالته عن «رأس الحسين» - رضي الله عنه - ؛ ولكن الدكتور أجاد في عرض المسألة وتلخيصها . فأحببتُ نقلها في هذه الرسالة عن «التصوف» ؛ لأن المتصوفة - هداهم الله - ممن يروجون لهذا المشهد المكذوب الذي صرفوا به المسلمين عن تحقيق التوحيد لرب العالمين .

يقول الدكتور الشيباني : (إن منشأ الاختلاف في موضع رأس الحسين رضي الله عنه عند عامة الناس إنما هو ناتج عن تلك المشاهد المنتشرة في ديار المسلمين -التي أقيمت في عصور التخلف الفكري والعقدي- وكلها تدعي وجود رأس الحسين!

ثم إن الجهل بموضع رأس الحسين جعل كل طائفة تنتصر لرأيها في ادعاء وجود الرأس عندها.

وإذا أردنا التحقيق في مكان الرأس فإنه يلزمنا تتبع وجود الرأس

منذ انتهاء معركة كربلاء.

لقد ثبت أن رأس الحسين حمل إلى ابن زياد، فجعل الرأس في طست وأخذ يضربه بقضيب كان في يده، فقام إليه أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال: «لقد كان أشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم». (البخاري) .

ثم بعد ذلك تختلف الروايات والآراء اختلافاً بيّناً بشأن رأس الحسين رضي الله عنه.

ولكن بعد دراسة الروايات التي ذكرت أن ابن زياد أرسل الرأس إلى يزيد بن معاوية وجدتُ أن الروايات على النحو التالي:

- هناك روايات ذكرت أن الرأس أرسل إلى يزيد بن معاوية، وأخذ يزيد ينكت بالقضيب في فم الحسين، الأمر الذي حدا بأبي برزة الأسلمي رضي الله عنه أن ينكر على يزيد فعلته.

ولكن هذه الرواية التي ذكرت وصول الرأس وتعامل يزيد معه بهذا النحو، ضعيفة . (الطبراني وغيره بأسانيد منقطعة أو ضعيفة) .

ولعل هذه الأسانيد هي التي اعتمد عليها شيخ الإسلام في إنكاره أن يكون الرأس قد وصل إلى يزيد أصلاً.

وكان استدلال شيخ الإسلام على ضعف هذه الرواية «بأن الذين حضروا نكته بالقضيب من الصحابة لم يكونوا بالشام، وإنما كانوا بالعراق».

ونحن نشارك شيخ الإسلام ابن تيمية في نقده لمتن هذه الرواية؛

بل ونضيف أمراً آخر يدل على فساد متن هذه الرواية ؛ وهو أنه مخالف لتلك الروايات الصحيحة التي بيّنت حسن معاملة يزيد لآل الحسين وتألمه وبكائه على قتل الحسين رضي الله عنه.

ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ورأس الحسين إنما حمل إلى ابن زياد وهو الذي ضربه بالقضيب كما ثبت في الصحيح».

«وأما حمله إلى عند يزيد فباطل، وإسناده منقطع».

وكان اعتماد شيخ الإسلام على نفس الرواية وعدم ثبوت سندها هو اطلاعه -كما يبدو- على رواية حصين بن عبد الرحمن السلمي التي قال فيها حصين فحدثني مولى ليزيد بن معاوية قال: لما وضع رأس الحسين بين يدي يزيد رأيته يبكي ويقول: «ويلي على ابن مرجانة فعل الله به، أما والله لو كانت بينه وبينه رحم ما فعل هذا».

وهذه الرواية ذكرها البلاذري؛ والطبري، والجوزقاني.

وهذه الرواية إذا نظرنا إلى متنها نجد أنها متوافقة مع ما ثبت عن حسن تعامل يزيد مع أبناء الحسين، ومع ما أبداه يزيد من الحسرة والندامة على قتل الحسين.

وأما إسناد هذه الرواية فإن الرجل المبهم فيها هو الذي جعل شيخ الإسلام ينكر صحتها ويقول «في إسناده مجهول».

ولكن هناك رواية حسنة الإسناد في أنساب الأشراف، تفيد بأن ابن زياد قد حمل الرأس إلى يزيد بن معاوية.

ثم إن هناك رواية أخرى ذكرها الطبراني على الرغم من ضعفها

إلا أنها تزيد رواية البلاذري قوة، إضافة إلى الروايات الحديثية والتاريخية الأخرى التي ذكرت حمل الرأس إلى يزيد.

وبإعادة النظر في الرواية التي ذكرها البلاذري والطبري والجوزقاني -رواية حصين- نجد أن الرجل المبهم يذكره البلاذري على أنه مولى يزيد بن معاوية.

وفي رواية الطبري والجوزقاني ذكر أنه مولى معاوية بن أبي سفيان، وهذا الاختلاف في نسبة ولائه بين معاوية وبين يزيد بن معاوية لا يضر، وهو الأمر الذي جعلني أميل إلى أنه القاسم بن عبدالرحمن الدمشقي مولى يزيد بن معاوية، وهو صدوق.

والدليل على ذلك أن أبا مخنف روى نفس الرواية مع قليل من الاختلاف، فقال أبو مخنف: حدثني الصقعب بن زهير عن القاسم بن عبدالرحمن مولى يزيد بن معاوية قال: لما وضعت الرؤوس بين يدي يزيد -رأس الحسين وأصحابه- قال:

نفلق هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

أما والله يا حسين لو كنت صاحبك لما قتلتك».

وهذه الرواية تتفق مع الروايات الصحيحة في نظرة يزيد لمقتل الحسين وتألمه لما حدث له.

الأمر الذي يجعل من البعيد جداً أن يكون أبو مخنف قد حرّف الرواية أو زاد فيها شيئاً من عنده.

فإذا ثبت أن المولى هو القاسم بن عبد الرحمن الدمشقي فعندئذ

تكون رواية الطبري والبلاذري والجوزقاني حسنة، ثم إذا أضفنا لها الروايات السابقة تجعلنا نؤكد أن الرأس قد حمل إلى يزيد، ولعل هذه الروايات هي التي جعلت ابن كثير يغيّر رأيه أخيراً بشأن رأس الحسين، فبعد أن كان يميل إلى رأي شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية عندما قال والصحيح «إنه -أي ابن زياد- لم يبعث برأس الحسين إلى الشام». قال في مكان آخر: «وقد اختلف العلماء في رأس الحسين هل سيّره ابن زياد إلى الشام أم لا، على قولين الأظهر منهما أنه سيّره إليه، فقد ورد في ذلك آثار كثيرة والله أعلم» وهو ما ذهب إليه أيضاً الذهبي.

- وبعد أن ترجح لدينا الآن أن ابن زياد قد بعث برأس الحسين إلى يزيد وأن الرأس وصل إلى دمشق فإنا سنواجه باختلاف كبير حول المكان الذي قبر فيه رأس الحسين رضي الله عنه.

فالأماكن التي ذكر أن رأس الحسين مقبور بها ستة مدن ؛هي:

١- دمشق. ٢- الرقة ٣- عسقلان.

٤- القاهرة. ٥- كربلاء ٦- المدينة.

ولكي نصل إلى تحديد دقيق بشأن مكان رأس الحسين، فإنا سنعرض إلى كل هذه المدن التي ذكر بأن الرأس موجود بها، ثم نناقش الروايات التي ذكرت ذلك ومن ثم نحدد مكان الرأس بعد النقد والتمحيص لهذه الروايات.

أولاً: دمشق:

ذكر البيهقي في المحاسن والمساوئ (بدون سند !): أن يزيد أمر بغسل الرأس وجعله في حرير وضرب عليه خيمة ووكل به خمسين رجلاً».

وقال ابن كثير: «وذكر ابن أبي الدنيا من طريق عثمان بن عبدالرحمن، عن محمد بن عمر بن صالح -وهما ضعيفان- أن الرأس لم يزل في خزانة يزيد بن معاوية حتى توفي، فأخذ من خزانته وكفن ودفن داخل باب الفراديس من مدينة دمشق.

قلت: ويعرف مكانه بمسجد الرأس اليوم داخل باب الفراديس».

وقد ذكر النعيمي: من مساجد دمشق: «مسجد الرأس ويقال بأن فيه رأس الحسين رضي الله عنه».

وأما ابن عساكر فقد ساق بإسناده عن ريا حاضنة يزيد بن معاوية:«أن الرأس مكث في خزائن السلاح حتى ولي سليمان، فبعث فجيء به فبقي عظماً فطيبه وكفّنه، فلما وصلت المسودة (أي العباسيين) سألوا عن موضع الرأس ونبشوه، فالله أعلم ما صُنع به».

قال الذهبي معقباً على هذه القصة: «وهي قوية الإسناد».

ويبدو أن الذهبي لم يتراجع عن تقويته لإسناد هذه القصة كما نقله عنه تلميذه ابن أبيك الصفدي. (شرح رسالة ابن زيدون ، ص ٢٠٥).

ولكن عند النظر في إسناد هذه القصة نجد أن ابن عساكر قد جاء بهذه القصة أثناء ترجمة «ريا» حاضنة يزيد، واعتمد في إسناده على طريق واحد فقط وهو: أحمد بن محمد بن حمزة الحضرمي، عن أبيه، عن جده، عن أبي حمزة ابن يزيد الحضرمي .

وسند ابن عساكر هذا سند ضعيف، ولا أعلم على أي شيء اعتمد الذهبي في تقويته لهذا السند؟! مع أنه سوف يضعف كما سنرى الراوي، فالراوي أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة الحضرمي البتلهي: ضعيف.

قال ابن حبان عن والده محمد بن يحيى : ثقة في نفسه، ويتقى حديثه ما روى عنه أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة وأخوه عبيد فإنهما يدخلان عليه كل شيء.

وهذه القصة من رواية ابنه أحمد، فهو مما يتقى ويترك. وقال عنه الذهبي: له مناكير، وقال أبو أحمد الحاكم: فيه نظر ثم إن جد أبيه بن يزيد الحضرمي لم أعثر له ترجمة.

هذا من جهة السند، وأما بالنسبة للمتن، فإن هذه الرواية يبدو فيها الكذب واضحاً، وفي سياقها نكاره ظاهرة حيث مخالفتها للروايات الصحيحة التي تؤكد حسن معاملة يزيد لأبناء وأسرة الحسين.

ثم إن في المتن نزعة رافضية واضحة حيث ورد في الرواية «ولقد جاء رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له -أي

يزيد- لقد أمكنك الله من عدو الله وابن عدو أبيك، فاقتل هذا الغلام أي علي بن الحسين ... فاقطع أصل هذا البيت..»

وأخيراً فإن راوية القصة (ريا) هذه ذكرها ابن عساكر ولم يذكر فيها جرحاً ولا تعديلاً، وتكون بذلك مجهولة. وبهذا تكون رواية ابن عساكر التي قواها الذهبي رواية ساقطة لا يعتمد عليها بأي حال من الأحوال، وقد أورد الذهبي بإسناده عن أبي كريب قال: كنت فيمن توثب على الوليد بن يزيد بدمشق، فأخذت سفطاً وقلت فيه غنائي، فركبت فرسي، وخرجت من باب توما، قال: ففتحه، فإذا فيه رأس مكتوب عليها، هذا رأس الحسين بن علي، فحفرت فيه بسيفي، فدفنته؟ . وهي رواية ضعيفة جداً، وفي سند هذه الحكاية من لم أعثر لهم على ترجمة، وقد علق المحقق على هذه الحكاية بقوله: «لا يصح فيه من لا يعرف».

ومن ناحية أخرى ما هي فائدة يزيد من احتفاظه برأس الحسين وجعله في خزائن سلاحه ؟!

ثانياً: كربلاء:

لم يقل أحد بأن الرأس في كربلاء إلا الإمامية، فإنهم يقولون: بأن الرأس أعيد إلى كربلاء بعد أربعين يوماً من القتل، ودفن بجانب جسد الحسين رضي الله عنه، وهو يوم معروف عندهم يسمون الزيارة فيه زيارة الأربعين.

ويكفي أن هذا القول إنما تفرد به الإمامية (الرافضة) هم أكذب

الخلق على الإطلاق، ومن نظر في كتبهم عرف هذه الحقيقة ، وقد أنكر أبو نعيم (الفضل بن دكين) على من زعم أنه يعرف قبر الحسين رضي الله عنه .

وقد ذكر ابن جرير وغيره أن موضع قتله عفى أثره حتى لم يطلع أحد على تعيينه .

ثالثاً: الرقة :

لقد انفرد سبط ابن الجوزي بإيراد خبر يذكر أن الرأس قبر بالرقة وقال: إن الرأس بمسجد الرقة على الفرات، وأنه لما جيء به بين يدي يزيد بن معاوية قال: «لأبعثن إلى آل أبي معيط عن رأس عثمان» وكانوا بالرقة ، فدفنوه في بعض دورهم ، ثم دخلت تلك الدار بالمسجد الجامع، وهو إلى جانب سور هناك.

وهذا خبر مستبعد ؛ فالرواية ليست مسندة، ولا نعلم أي مصدر اعتمد عليه سبط ابن الجوزي حينما نقل هذا

الرأي، ثم إن سبط ابن الجوزي متأخر جداً عن الحدث (ت ٦٥٤هـ) ، ثم إضافة إلى ما سبق فإن الخبر فيه نكارة واضحة لمخالفته النصوص الصحيحة التي ثبت فيها حسن معاملة يزيد لأسرة الحسين وتحسره وندمه على قتله، ثم إن سبط ابن الجوزي هذا على علو قدره ومكانته قال عنه الذهبي «ورأيت له مصنفاً يدل على تشيعه».

رابعاً: عسقلان :

قال الشبلنجي: «ذهبت طائفة إلى أن يزيد أمر أن يُطاف بالرأس

في البلاد فطيف به حتى انتهى إلى عسقلان فدفنه أميرها بها». (نور الأبصار، ص ١٢١).

ولعل الشبلنجي هو الوحيد الذي قدّم تفسيراً عن كيفية وصول الرأس إلى عسقلان، وأما غيره فقد ذكروا بدون مسببات أن الرأس في عسقلان فقط.

وتعتبر رواية الشبلنجي رواية منكرة، بعيدة عن التصور، فكيف بالواقع المحتم في تلك الفترة بالذات؟!

فهي بالإضافة إلى مخالفتها للروايات الصحيحة التي تفيد أن يزيد تعامل مع أسرة الحسين تعاملاً حسناً، فإن الرواية تعطي تصوراً بعيداً جداً عن واقع المسلمين في ذلك الحين.

فكيف يُعقل أن يُقدم يزيد على هذا العمل من أن يطوف برأس الحسين رضي الله عنه في بلاد المسلمين، والمسلمون لا يتأثرون من هذا الصنيع برأس الحسين رضي الله عنه ؟

ثم أي غرض لهم في دفنه بعسقلان، وكانت إذ ذاك ثغراً يقيم بها المرابطون؟ فإن كان قصدهم تعفيه أثره، فعسقلان تُظهره لكثرة من ينتابها للرباط، وإن كان قصدهم بركة البقعة فكيف يُقصد هذا ممن يقول: إنه عدو له – أي يزيد- مستحل لدمه، ساع في قتله».

وهكذا فقد ثبت من الجهة النظرية والعملية استبعاد بل استحالة دفن الرأس بعسقلان.

ولقد أنكر جمع من المحققين هذا الخبر فقال القرطبي: «وما ذكر

أنه في عسقلان فشيء باطل».

وأنكر شيخ الإسلام ابن تيمية وجود الرأس بعسقلان، وتابعه على ذلك ابن كثير.

خامساً: القاهرة:

يبدو أن اللعبة التي قام بها العبيديون (الفاطميون) قد انطلت على الكثير من الناس.

فبعد أن عزم الصليبيون الاستيلاء على عسقلان سنة تسع وأربعين وخمسمائة (٥٤٩هـ)، خرج الوزير الفاطمي طلائع بن زريك هو وعسكره حفاة إلى الصالحية، فتلقى الرأس ووضعه في كيس من الحرير الأخضر على كرسي من الأبنوس وفرش تحته المسك والعنبر والطيب، ودفن في المشهد الحسيني قريباً من خان الخليلي في القبر المعروف، وكان ذلك في يوم الأحد الثامن من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

وقد ذكر الفارقي أن الخليفة الفاطمي نفسه قد خرج وحمل الرأس، وذكر الشبلنجي أن الوزير طلائع افتدى الرأس من الإفرنج، ونجح في ذلك بعد تغلبهم على عسقلان وافتداه بمال جزيل.

ولقد حاول بعض المؤرخين أن يؤكدوا على أن الرأس قد نقل فعلاً من عسقلان إلى مصر، وأن المشهد الحسيني في مصر إنما هو حقيقة مبني على رأس الحسين رضي الله عنه.

والعجيب أن القلقشندي استدل على صحة وجود الرأس بمصر

بالحادثة التالية : أن القاضي محب الدين بن عبد الظاهر ذكر في كتابه خطط القاهرة، أن السلطان صلاح الدين الأيوبي حين استولى على قصر الفاطميين أمسك خادماً من خدام القصر ، وعذبه بأن حلق رأسه وكفى عليه طاساً، وجعل فيه خنافس فأقام ثلاثة أيام لم

يتأثر بذلك، فدعاه السلطان وسأله عن شأنه، هل معه طلسم وقاه ذلك فقال: لا أعلم شيئاً، غير أني حملت رأس الحسين على رأسي حين أتي به إلى المشهد، فخلى سبيله وأحسن إليه»!!

وأما الصوفية فيرون أن رأس الحسين هو بالمشهد القاهري، ويذكرون سمجاً من الخرافة، حيث يرون أن القطب يزوره كل يوم بالمشهد القاهري!

وأما أحد المتأخرين وهو حسين محمد يوسف، فقد أثبت أن الرأس الموجود في المشهد الحسيني هو حقيقة رأس الحسين وخطّأ من يقول بغير ذلك؛

وكان الاستدلال الذي جاء به هو : تلك المنامات والكشوفات التي تجلت لبعض المجاذيب (الصوفية) التي جاء في بعضها أن الرأس هو في الحقيقة رأس الحسين !!

ثم أورد تأييداً لهذا القول باستحداث قاعدة قال فيها «إن الرأس يوجد في القاهرة وذلك بسبب الشك الذي تعارض مع اليقين»، واليقين (هم أصحاب الكشف) !!

وكما يبدو فإن الوطنية لعبت دوراً كبيراً في هذا التأكيد على أن

رأس الحسين موجودة في القاهرة . (انظر : التحفة اللطيفة، للسخاوي، ١/ ٥١٣) .

وهكذا فإن الاستدلال على وجود الرأس في القاهرة كان مبنياً ومستندًا على أن الرأس كان في عسقلان، وقد أثبتنا قبل قليل بطلان وجود الرأس بعسقلان، وبالتالي يكون الرأس الذي حُمل إلى القاهرة، والمشهد المعروف اليوم والمقام عليه المسمى بالمشهد الحسيني كله كذب، وليس له أي علاقة برأس الحسين رضي الله عنه .

وإذا ثبت أن الرأس الذي كان مدفوناً بعسقلان ليس في الحقيقة رأس الحسين، فإذاً متى ادّعي أن رأس الحسين بعسقلان وإلى من يعود ذلك الرأس؟

يقول النويري: إن رجلاً رأى في منامه وهو بعسقلان أن رأس الحسين في مكان بها، عُيّن له في منامه، فنبش ذلك الموضع، وذلك في أيام المستنصر بالله العبيدي صاحب مصر، ووزارة بدر الجمالي، فابتنى له بدر الجمالي مشهداً بعسقلان. (نهاية الأرب ،٢٠/ ٤٧٨) .

وقام الأفضل بعد ذلك بإخراجه وعطّره ووضعه في مكان آخر من عسقلان وابتنى عليه مشهداً كبيراً.

ولعلك تعجب من إسراع العبيديين الرافضة لإقامة المشهد على هذا الرأس، لمجرد رؤية رجل فقط؟ ولكن إذا عرفت تاريخ العبيديين فإن الأمر لا يُستغرب .

فإحساسهم بأن الناس لا يصدقون نسبتهم إلى الحسين، جعلهم

يلجؤون إلى تغطية هذا الجانب باستحداث وجود رأس الحسين بعسقلان، ويُظهرون من الاهتمام به وبناء المشهد عليه والإنفاق على ترميمه وتحسينه من الأموال الشيء الكثير ؛ حتى يصدقهم الناس، ويقولون: إنه لو لم يكن لهم نسب فيه لما اهتموا به إلى هذا الحد .

ثم إن هناك بعداً سياسياً آخر باستحداث وادعاء وجود رأس الحسين بعسقلان دون غيرها من المناطق التي تقع تحت سيطرتهم، وهو محاولة مجابهة الدول السنية التي قامت في بلاد الشام، ومن المعروف أن حكومة المستنصر بالله العبيدي قد صادفت قيام دولة السلاجقة السنية التي تمكن قائدها طغرلبك السلجوقي من دخول بغداد سنة سبع وأربعين وأربعمائة.

وأيضاً فإن العبيديين يَرْمُون من استحداث قبر الحسين بعسقلان حماية مصر بوضع أقصى خط لها في شمالها، ثم يكون قبر الحسين محفزاً لجنودهم للقتال والدفاع عنه، وذلك إذا انحسر نفوذهم من بلاد الشام وخاصة إذا تعرضوا لهجوم شامل من دولة السلاجقة السنية البالغة القوة في ذلك الحين.

ولما أن غزى الصليبيون بلاد الشام، واستطاعوا اكتساح الدويلات السنية، وسيطروا على فلسطين، واستولوا على القدس خشي العبيديون من استيلاء الصليبيين على عسقلان، فأرادوا أن يجعلوا من القاهرة المكان المناسب لهذا الرأس، وحتى يبدوا أمام الناس بأنهم حريصون على رأس جدّهم مما يدفع الشبهة عنهم أكثر

فأكثر.

ومما يدل على أن استحداث وجود الرأس بعسقلان ونقله إلى مصر ما هو إلا خطة عبيدية ؛ أنه لم يرد أن رأس الحسين وجد في عسقلان في أي كتاب قبل ولاية المستنصر الفاطمي. وهذا مما يعزز كذب العبيديين، وتحقيق أغراض خاصة لهم بذلك.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذا الرأس المزعوم في مصر ليس في الأصل سوى رأس راهب.

وأنكر عمر بن أبي المعالي أن يكون رأس الحسين قد وجد بعسقلان أو مصر وذلك «لأنه لم يوجد في تاريخ من التواريخ أنه -أي الرأس- نقل إلى عسقلان أو إلى مصر، ويقوي ذلك أن الشام ومصر لم يكن فيهما شيعة علوية يُنقل إليهم ...». (نهاية الأرب للنويري ، ٢٠/ ٤٨١).

وقد نقل ابن دحية في كتابه «العلم المشهور» الإجماع على كذب وجود الرأس بعسقلان أو بمصر، ونقل الإجماع أيضاً على كذب المشهد الحسيني الموجود في القاهرة وذكر أنه من وضع العبيديين، وأنه لأغراض فاسدة وضعوا ذلك المشهد .

وقد أنكر وجود الرأس في مصر كل من: ابن دقيق العيد، وأبو

محمد بن خلف الدمياطي، وأبو محمد بن القسطلاني، وأبو عبد الله القرطبي وغيرهم.

وقال ابن كثير «وادعت الطائفة المسماة بالفاطميين الذين ملكوا مصر قبل سنة أربعمائة إلى سنة ستين وخمسمائة أن رأس الحسين وصل إلى الديار المصرية، ودفنوه بها وبنوا عليه المشهد المشهور بمصر، الذي يقال له تاج الحسين، بعد سنة خمسمائة .

وقد نص غير واحد من أئمة أهل العلم على أنه لا أصل لذلك، وإنما أرادوا أن يروجوا بذلك بطلان ما ادعوه من النسب الشريف، وهم في ذلك كذبة خونة، وقد نص على ذلك القاضي الباقلاني وغير واحد من أئمة العلماء في دولتهم، قلت: والناس أكثرهم يروج عليهم مثل هذا، فإنهم جاءوا برأس فوضعوه في مكان هذا المسجد المذكور، وقالوا هذا رأس الحسين، فراج ذلك عليهم واعتقدوا ذلك والله أعلم».

وقد كانت هذه المشاهد هي الطريق الموصلة إلى الشرك بالله ؛ ولذا قال شيخ الإسلام: «وما أحدث في الإسلام من المساجد والمشاهد والآثار فهو من البدع المحدثة في الإسلام، ومن فعل من لم يعرف شريعة الإسلام، وما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم من

كمال التوحيد وإخلاص الدين لله سبحانه، وسد أبواب الشرك التي يفتحها الشيطان لبني آدم، وذلك يوجد في الرافضة أكثر مما يوجد في غيرهم، لأنهم أجهل من غيرهم وأكثر شركاً وبدعاً، ولهذا يعظمون المشاهد أعظم من المساجد ويخربون المساجد أكثر من غيرهم، فالمساجد لا يصلون فيها إن صلوا إلا أفذاذاً، وأما المشاهد فيعظمونها أكثر من المساجد ؛ حتى يرون أن زيارتها أولى من حج بيت الله الحرام، ويسمونها الحج الأكبر، وصنف ابن المفيد منهم كتاباً سماه (مناسك حج المشاهد) وذكر فيه من الأكاذيب والأقوال ما لا يوجد في سائر الطوائف، وإن كان في غيرهم أيضاً نوع من الشرك والكذب والبدع؛ لكنه فيهم أكثر...» .

وبالفعل، فإن الذي يرى أولئك الناس الذين يطوفون بقبر رأس الحسين المزعوم في القاهرة، والذين يرجونه من دون الله ويستغيثون به من دون الله يعلم إلى أي حد بلغ الشرك في ديار المسلمين، ويعلم أيضاً إلى أي حد بلغ تقاعس العلماء عن تبيين الحق وتوضيحه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية «وكان بعض النصارى يقول لبعض المسلمين: لنا سيد وسيده، ولكم سيد وسيده ، لنا السيد المسيح والسيدة مريم، ولكم السيد الحسين والسيدة نفيسه».

سادساً: المدينة المنورة:

ذكر ابن سعد: أن يزيد بعث بالرأس إلى عمرو بن سعد والي المدينة، فكفنه ودفنه بالبقيع إلى حيث قبر أمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال البلاذري: حدثنا عمر بن شبه، حدثني أبو بكر عيسى بن عبيد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، عن أبيه قال: إن الرأس بعث به يزيد إلى عمرو بن سعيد والي المدينة.

وهذه الرواية عن واحد من أهل البيت، ولا شك أن أحفاد الحسين هم أعلم الناس برأس الحسين رضي الله عنه، وبذلك يكون كلامهم مقدماً على كلام غيرهم بشأن وجود الرأس.

ثم بالنظر إلى حسن تعامل يزيد مع آل الحسين وندمه على قتل الحسين رضي الله عنه يكون من المتمات لما أبداه يزيد تجاه آل الحسين هو احترام رأس أبيهم، فبإرسال رأس الحسين إلى والي المدينة وأمره بأن يدفن بجانب قبر أمه يكون يزيد قد أدى ما يتوجب عليه حيال رأس الحسين وحيال آل الحسين، بل وحيال أقارب الحسين في المدينة وكبار الصحابة والتابعين.

«ثم إن دفنه بالبقيع: هو الذي تشهد له عادة القوم، فإنهم كانوا

في الفتن، إذا قتل الرجل منهم ـ لم يكن منهم ـ سلموا رأسه وبدنه إلى أهله، كما فعل الحجاج بابن الزبير لما قتله وصلبه، ثم سلموه إلى أهله، وقد علم أن سعي الحجاج في قتل ابن الزبير، وأن ما كان بينهما من الحروب أعظم بكثير مما كان بين الحسين وبين خصومه». كما أننا لا نجد انتقاداً واحداً انْتُقِد فيه يزيد سواء من آل البيت أو من الصحابة أو من التابعين فيما يتعلق بتعامله مع الرأس، فظني أن يزيد لو أنه تعامل مع الرأس كما تزعم بعض الروايات من الطوفان به بين المدن والتشهير برأسه، لتصرف الصحابة والتابعين تصرفاً آخراً على أثر هذا الفعل، ولما رفض كبارهم الخروج عليه يوم الحرة ولرأيناهم ينضمون مع ابن الزبير المعارض الرئيس ليزيد . ويؤيد هذا الرأي قول الحافظ أبو يعلى الهمداني: «إن الرأس قبر عند أمه فاطمة رضي الله عنها وهو أصح ما قيل في ذلك».

وهو ما ذهب إليه علماء النسب مثل: الزبير بن بكار ومحمد بن الحسن المخزومي.

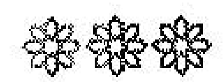
وذكر عمر بن أبي المعالي أسعد بن عمار في كتابه «الفاصل بين الصدق، والـمَيْن في مقر رأس الحسين» أن جمعا من العلماء الثقات كابن أبي الدنيا، وأبي المؤيد الخوارزمي، وأبي الفرج بن الجوزي قد

أكدوا أن الرأس مقبور في البقيع بالمدينة» .

وتابعهم على ذلك القرطبي . وقال الزرقاني: قال ابن دحية : ولا يصح غيره. وشيخ الإسلام يميل إلى أن الرأس قد بعث به إلى واليه على المدينة عمرو بن سعيد وطلب منه أن يقبره بجانب أمه فاطمة رضي الله عنها، والذي جعل شيخ الإسلام يرى ذلك هو : «أن الذي ذكر أن الرأس نقل إلى المدينة هم من العلماء والمؤرخين الذين يعتمد عليهم مثل الزبير بن بكار، صاحب كتاب الأنساب، ومحمد بن سعد كاتب الواقدي صاحب الطبقات، ونحوهما من المعروفين بالعلم والثقة والإطلاع، وهم أعلم بهذا الباب، وأصدق فيما ينقلونه من المجاهيل والكذابين، وبعض أهل التاريخ الذين لا يوثق بعلمهم، وقد يكون الرجل صادقاً، ولكن لا خبرة له بالأسانيد، حتى يميز بين المقبول والمردود، أو يكون سيء الحفظ أو متهماً بالكذب أو بالتزيد في الرواية، كحال كثير من الأخباريين والمؤرخين».

وبذلك يكون رأس الحسين مقبوراً بجانب أمه فاطمة رضي الله عنها، وهو الموافق لما ثبت في الروايات من حسن تعامل يزيد مع آل الحسين، ثم هو الأقرب إلى الواقع الذي يملي على يزيد إرساله إلى المدينة ليقبر بجانب أمه رضي الله عنها) اهـ .

(مواقف المعارضة ، ص ٣٠٦-٣٢٥ بتصرف يسير وتهذيب ؛ مع ملاحظة حذف الهوامش إلا مالابد منه ؛ ومن أراد المزيد فليرجع لأصل الرسالة).



الفهرس

* * *